روايات عالمية للجيب 60

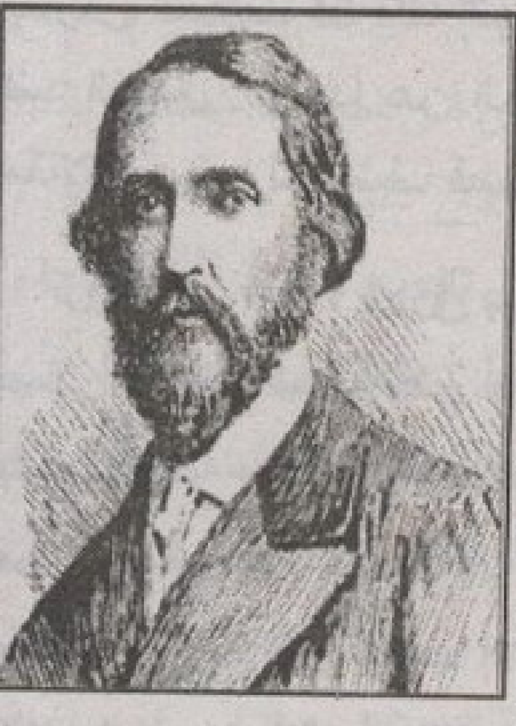


كارميلا

تأليف : شريدان لوفانو

ترجمة وإعداد : د . أحمد خالد توفيق

المؤلف



شـريـدان لـو فـانـو

Sheridan Le Fanu

أديب أيرلنـدى فكتورى نـال شـهرة ساحقة فـى فـترة مـن الفترات كرائـد قصـة الأشباح الحديثة ، ثم لم يعد أحد يقرؤه لأسباب سوف نتكلم عنها حالاً .
اشتهر بقصصه (الخال سيلاس ـ ١٨٦٤) و(المنزل المجاور لفناء الكنيسة ١٨٦٣) على أن قصته الأشهر هى (كـارميلا Carmilla) التى نقدمها لك هنا .. وهى قصة مصاصى الدما الأهم ، ويقال إنها الأفضل كذلك ، والتى قيل إنها ألهمـ (ستوكر) بقصة (دراكيـولا) .. علـى الأقـل كـانت مـ مصادره الأساسية ..

ولد الرجل عام ١٨١٤ فى (دبلين) لأسرة ثرية وأب مـ رجال الاكليرك .. درس القانون فى كلية (ترنتى) وتخرج فيـ

عام ١٨٣٧ ، وفى العام ١٨٤٥ قدم قصته الأولى (الديك والمرساة) .. وكان شديد الإعجاب بأدب (والتر سكوت) . لم يمارس المحاماة قط لكنه انهمك فى عالم الصحافة . كان ضد انفصال إيرلندا عن إنجلترا لكن هذا كان يظهر فى مقالاته ، بينما لم تكشف قصصه قط عن ميوله السياسية .

تزوج عام ١٨٤٤ ورزق بأربعة أطفال .. وبعد وفاة زوجته صار أميل إلى العزلة حتى أطلق عليه اسم (الأمير الخفى) بسبب عزلته وانطوائه وعادات كتابته الليلية .. كان يكتب من منتصف الليل حتى الفجر مستعيناً بشمعتين عن يمينه ويساره ، ولم يكن يكتب إلا فى الفراش .. توفى عام ١٨٧٣ ونسيت أكثر أعماله ، ويعود هذا للنظرة العامة حتى فى الخارج إلى أدب الرعب على أنه أقل شأناً من الأدب الإنسانى .

كان هذا حتى عام ١٩٢٣ عندما قدم الناقد (م . جيمس) مجموعة قصص له تحت عنوان (حكايات الغموض) .. عندئذ تذكر العالم أهمية هذا الأديب وخياله الخصب ..

الأحداث الغريبة فى قصصه تقبل عدة تفسيرات ، منها الأشباح ومنها الهلاوس النفسية أو المجازات اللغوية . هنـاك قصة له اسمها (الشاى الأخضر) عن قس يطارده شبح قرد ويجعل حياته جحيمًا .. حتى فى لحظات الصلاة يثب القرد ليغطى صفحـات الإنجيل . فى النهايـة ينتحر القس ، لكن يبقـى السؤال عمـا إذا كـان الشبح حقيقيًا أم أن هـذه هلاوس سببها الشاى الأخضر الذى اعتاد القس شربه .. فى تلك الفترة شاع شرب الشاى الأخضر الذى اعتقد كثيرون أنـه يحوى مخدرًا مـا . هكذا كـان يـترك للقـارئ تفسـيرين ليختـار بينهما : الطبيعى والخارق للطبيعة . وكان مـن عاداتـه كذلك أن يستخدم قصصه القصيرة السـابقة كنـواة لرواياتـه .. إن روايـة (مستر جاستيس هاربوتل) كانت قصة قصيرة قديمة له اسمها (وصف لبعض الاضطرابات الغريبة فى شارع أونجير) ..

تحكى قصة العم (سيلاس) حكاية مثيرة لكن من غير أشباح عن الفتاة الشابة (مود) التـى توفيت أمهـا ، ويحـاول الوصـى الشـرير عليهـا (سيلاس) أن يزوجهـا ابنـه المتزوج فعـلاً ليظفر بثروتها ..

وفى قصة (كارميللا) التى كتبها عام ١٨٧٢ ، نرى صداقة حميمة بين فتاتين ، تدرك واحدة منهما أن صديقتها الحبيبة هى مصاصة دماء اسمها (ميركالا) عاشت منذ مئات السنين .. عادات مصاص الدماء تختلف هنا عن التقاليد المحفوظة التى تعلمناها من شخصية دراكيولا . على سبيل المثال يمشى مصاصو الدماء هنا فى الشمس . تحتفظ القصة بالكثير من جو الغموض حتى بعد الخاتمة (سوف تجد أن أسئلة كثيرة لم تتم الإجابة عنها .. من المرأة الغامضة التى ترتدى الأسود ؟ من هو السيد الشاحب ؟ هل رؤى الفتاتين مشتركة فعلاً ؟ إلخ .. إلخ) .. لكن هذا الغموض ساحر فى حد ذاته يعطى العمل ثراء شعريًا ..

هذه القصة المحظوظة قدمتها السينما العالمية مرات عديدة ، وقدمتها شركة (هامر Hammer) البريطانية المختصة فى أفلام الرعب عدة مرات فيما عرف بـ (ثلاثية كارنشتاين) .. هذه الأفلام التى قامت ببطولة أكثرها (إنجريد بيت) لم ولن تعرض فى مصر لما فيها من حسية شديدة ، وعلى كل حال يمكن القول إن كل مصاصة دماء فى السينما العالمية خرجت من

عباءة رواية (كارميللا) هذه .. القصة الأصلية قصيرة جدًا لذا يمكن اعتبار هذه الترجمة حرفية .

للمهتمين بمعرفـة المزيد عن (لـو فـانو) ، نقـدم هـذا الموقع اليابانى الذى يستخدم الإنجليزية :

http://www.lang.nagoya-u.ac.jp/~matsuoka/Fanu.html

وهو موقع يقودك لكل ما ذكر عن هذا الأديب على شبكة الإنترنت ، مع الكثير من أعماله طبعًا ..

د . أحمد خالد

مقـــدمة

على ورقة مرفقة بالنص التالى كتب د . (هيسـيليوس) مذكرة مدققـة مصحوبـة بمراجع بحثـه العلمـى فيمـا يتعلق بالموضوع الغريب الذى يطرحه النص .

لقد تعامل مع موضوع الدراسـة الغامض بفطنته وثقافته المعهودتين ، وبشـكل مباشر موجز . ولسوف تشـكل هذه الدراسة مجرد جزء من معرفة هذا الرجل المدهش .

وإذ أنشر هذه القصة فى هذا الكتاب كى أثير شغف سواد الناس ،فإننى لا أضيف شيئًا إلـى جهود السيدة الفاضلـة التـى تحكى القصة .. ولهذا أيضًا قـررت ألا أعرض هنـا أيًا مـن آراء الطبيب المثقف أو أستخرج شيئًا من النتـائج التـى توصل إليها فى موضوع يصفه بأنه (على الأرجـح يتضمـن بعضًـا من أعمق أسرار وجودنا المزدوج وأطواره الوسيطة) .

كنت حريصًا وقد وجـدت هـذه الورقـة أن أعيـد فتـح مراسلات د . (هيسيليوس) مع إنسانة بارعـة ذكيـة كـالتى

استمد منها معلوماته . إلا أننى عرفـت للأسف أنهـا توفيت فى الفترة السابقة .

كان بوسعها على الأرجـح أن تضيف شيئًا للقصـة التـى تحكيها فى الصفحات التالية ، خاصة أنها حكتها بهذه الدقـة وهذه الأمانة .

الفصل الأول

رعب مبكر

فى مقاطعة (شتيريا)[*] نعيش فى قلعة برغم أننـا لسنا بالقوم الأثرياء على الإطلاق . إن أقل الدخل فى هذه البقعـة من العالم يحقق لك الرغد ، وثمانمائة أو تسعمائة جنيه فـى العام كفيلة بتحقيق المعجزات ..

كان أبى بريطانيًا وأنا أحمل اسمًا بريطانيًا برغم أننى لم أر إنجلترا قط .. لكن هنا فى هذه البقعـة المنعزلـة البدائية حيث كل شىء رخيص الثمن ، لا أتصور كيـف يضيـف المزيد من المال شيئًا لرفاهيتنا وراحتنا .

كان أبى يعمل فى الحكومة النمساوية ثم تقاعد واشترى هذه الإقطاعية والعقارات الموجودة بها .. كانت صفقة .

ما كان هناك شىء أكثر جمالاً ولا عزلـة .. إن أرضنـا تقف على بقعة مرتفعة من الدغل ، والطريق العتيق الضيق يمر أمام جسر متحرك لم أره يرتفع فى حياتى كلها .. والخندق المائى

(★) مقاطعة فى النمسا ..

تحت هذا الجسر يسبح فيه البجع ، وعلى سطحه يطفو السوسن الأبيض .

وفوق هذا كله تبدو القلعة بواجهتها ذات النوافذ الكثيرة ، وأبراجها القوطية . وتطل على ساحة مفتوحة جميلة من الغابة ، وعلى اليمين ينحدر جسر قوطى الطابع بالطريق نحو الأحراش .

قلت لك : إن هذا مكان مقفر .. عليك أن تحكم على مقدار صدقى . فلو نظرت من باب الرواق إلى الطريق لوجدت أن الغابة تمتد خمسة عشر ميلاً لليمين واثنى عشر ميلاً للشمال . أقرب قرية مسكونة على بعد سبعة أميال إلى الشمال . أقرب قلعة ذات أهمية تاريخية هى قلعة الجنرال (شبيلزدورف) التى تبعد عشرين ميلاً إلى اليمين .

قلت (أقرب قرية مسكونة) ؛ لأن هناك على بعد ثلاثة أميال غربًا قرية متهدمة بها كنيسة صغيرة بلا سقف ، فيها القبور المتحللة لآل (كارنشتاين) الذين انقرضت أسرتهم ، والذين كانوا يملكون القصر الخرب الذى يطل من بين الأحراش على البلدة .

فيما يتعلق بسبب هجر هذه البقعة الحزينـة ، فهنـاك أسطورة سوف أحكيها لك فى مرة أخرى .

لابد الآن أن أحكى لك عن المجموعة الصغيرة التى تعيش فى قلعتنا .. لن أحصى الخدم ولا التابعين الذين يعيشون فى غرف ملحقة بالقلعة .. أصغ واندهش ! هناك أبى أطيب إنسان على وجه الأرض لكنه قد تقدم فى العمر .. وأنا فى التاسعة عشرة عندما وقعت قصتى .. لقد مرت ثمانية أعوام منذ ذلك الحين .. أنا وأبى نمثل كل ساكنى القلعة .. لقد توفيت أمى النمساوية فى طفولتى لكن تولت أمرى مربية طيبة ظلت معى طيلة طفولتى . لا أذكر متى لم يكن وجهها الممتلئ العطوف جزءًا من ذكرياتى .

كان اسمها مدام (بيرودون) .. من مواليد (برن) .. وقد عوضنى حنانها عن فقد أمى التى لا أذكرها .. كانت هذه المرأة هى الثالثة على مائدة عشائنا .. وكانت هناك آنسة رابعة هى مدموازيل (دى لا فونتين) هى ما يطلقون عليه

مساعدة مربية ، وكانت تجيد الفرنسية والألمانية . كنت أنا وأبى نتكلم الإنجليزية كى لا ننساها ، ومن قبيل الوطنية .. الناتج كان برج (بابل) اعتاد الغرباء أن يضحكوا منه ..

كانت هناك كذلك ثلاث آنسات من نفس عمرى يزرننا من حين لآخر وكنت أرد لهن الزيارات أحيانًا .

كانت حياتى وحيدة . أؤكد لك هذا ..

كانت مربيتاى تسيطران علىّ تمامًا ، كما لك أن تخمن معاملتهما لفتاة مدللة يسمح لها أبوها بعمل أى شىء ترغب فيه .

أول حادثة فى حياتى أحدثت انطباعًا رهيبًا فى نفسى لا أستطيع نسيانه ، وكانت من أوائل الأشياء التى حدثت لى فى حياتى . سوف يرى البعض أنها تافهة بحيث لا تستأهل الذكر هنا . لكنهم سيفهمون شيئًا فشيئًا أهميتها .

كانت غرفة الحضانة كما يطلقون عليها برغم أننى كنت أحتلها وحدى غرفة كبيرة فى الطابق العلوى من القلعة ولها سقف مائل من خشب البلوط ..

لابد أننى كنت فى السادسة عندما صحوت ذات ليلة ونظرت حولى للغرفة وأنا فى فراشى . لم أر المربية .. ما كنت خائفة لأننى كنت من الأطفال المحظوظين الذين لم يسمعوا قصص الأشباح وكل هذه الحكايات التى تجعلنا نغطى رءوسنا عندما يصدر الباب صريرًا ، أو يتراقص ضوء شمعة فيبدو عمود السرير كأنه يتحرك ..

فقط تضايقت لأننى شعرت بالإهمال وبدأت أئن ، عندما رأيت لشدة دهشتى وجهًا رائع الجمال ينظر لى من جانب الفراش .. كان وجه شابة تركع ويداها تحت غطاء السرير .. داعبت شعرى ثم رقدت جوارى على الفراش وجذبتنى نحوها وهى تبتسم ..

شعرت فجأة بالراحة وعدت للنوم .. إلا أننى صحوت شاعرة كأن إبرتين اخترقتا صدرى بعمق فى اللحظة ذاتها فصرخت بصوت عال ..

تراجعت السيدة وعيناها علىّ ثم نزلت إلى الأرض وبدا لى أنها توارت تحت الفراش ..

الآن شعرت بالخوف لأول مرة .. صرخت بكل قوتى ..

جاءت المربية ومدبرة المنزل ومساعدة المربية .. وسمعن
قصتى فاستخففن بها وقمن بتهدئتى ، وبرغم أننى كنت طفلـ
فقد لاحظت أن وجوههن شاحبة من فرط القلق ورأيتهن
ينظرن تحت الفراش .. ويفتشن الغرفة وخزان الثياب .
وقالت مدبرة المنزل للمربية :

ـ « ضعى يدك على هذا المنخفض فى الفراش .. أحدهـ
رقد هنا .. المكان ما زال دافئًا »

أتذكر أن المربية ربتت علىّ وتفحصت ثلاثتهن صدرى
وقلن إنه لا توجد علامة على أن شيئًا مما حكيته قد وقع

ظلت النسوة الثلاث ساهرات جوارى طيلة اليوم ، ومنذ ذلـ
اليوم ظلت واحدة معى فى غرفتى حتى بلغت الرابعة عشرة

بعد هذه الحادثة صرت عصبية ، وطلبوا لى طبيبًا ..

أذكر وجهه الكئيب الذى شوهه الجدرى نوعًا .. وكان يأ
لى يومًا بعد يوم ليعطينى الدواء الذى كنت بالطبع أكرهه

أذكر كيف جاء أبى ووقف جوار الفراش ثم راح يتكلم فى مرح .. كيف سأل الممرضة عن أشياء وهـو يضحك ، وكيف ربت على كتفى وقال لى ألا أخاف لأن هذا مجرد حلم لا يمكن أن يؤذينى .

لكنى لم أسترح .. لأنى كنت أعرف أن زيارة تلك السيدة لم تكن حلمًا ..

قالت لى مساعدة المربية إنها هى التى جاءت ليلاً ونـامت جوارى ، وإننى بالتأكيد كنت نائمـة فلم أعرفها ، لكن هذا التفسير لم يرق لى .

أذكر ذلك اليوم أن شيخًا جليلاً يلبس ثياب كاهن جاء لغرفتى مع المربيتين ، وراح يتكلم معهما .. كان وجهه عذبًا لطيفًا ..

قال لى إنهم سيصلون وطلب أن أمسك بيده وأقول معه :

ـ « رب اسمع كل صلواتنا من أجل يسوع .. »

أعتقد أن هذا مـا قالـه لأننـى ظللت أردده لنفسـى عـدة أعوام كما طلبت منى المربية .

ركع ومعه ثلاث النسوة وصلى بصوت عال .. لقد نسيت الكثير بعد هذا لكن هذه الذكريـات ستبقى حيـة فى ذاكرتى كأنها صور من حلم أو هلوسة ..

* * *

الفصل الثانى

ضـــيف

الآن ســوف أخبرك بشىء غريب حتى إنه يقتضى كل ما لديك من قدرة على التصديق ..

ليس حقيقيًا فقط بل إنه حقيقة كنت شاهد عيان عليها ..

كانت ليلة صيف جميلة وطلب منى أبى أن أتمشى معه فى تلك الغابة التى وصفتها لك والواقعة أمام قلعتنا ..

قال أبى ونحن نبدأ جولتنا :

ـ « لن يلحق بنا جنرال (شبيلزدورف) بالسرعة التى أتمناها .. »

كان الجنرال قادمًا لزيارتنا لبضعة أسابيع وكنا ننتظره فى الغد . كان سيجلب معه ابنـة أخيه المدموازيل (راينفلت) التى لم أرها قط ، لكن سمعت أنها فتاة فاتنة ، وقد وعدت نفسى

بوقت طيب معها . شعرت بإحباط لأن هذه الزيارة ظلت فى أحلامى فترة طويلة .

ـ « ومتى يأتى إذن ؟ »

ـ « أجسر على القول إن هذا ليس قبل الخريف . شهران من الآن .. وإننى لسعيد يا عزيزتى لأنك لم تعرفى المدموازيل (راينفلت) قط »

سألته بفضول :

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لأن الشابة المسكينة قد ماتت .. نسيت أننى لم أخبرك لكنك لم تكونى معى عندما تلقيت رسالة الجنرال فى ذلك اليوم »

شعرت بصدمة .. لقد ذكر الجنرال فى خطاب سابق منذ ستة أسابيع أنها ليست بخير كما يتمنى .. لكن لم يكن هناك ما يدعو للتفكير فى أن يحدث هذا .

ـ « هذا هو خطاب الجنرال .. »

قالها وناولنى الخطاب .. بدا لى الخطاب مكتوبًا بدرجة عالية من الارتباك ..

جلسنا على مقعد تحت أشجار الزيزفون وكانت الشمس تغرب بجلالها خلف أجمة فى الأفق ، وقد راح النهر الذى يجرى جوار دارنا يعكس لون السماء الأرجوانى .

كان خطاب الجنرال عجيبًا شديد الوطء وفى بعض مواضعه شديد التناقض .. قرأته مرتين وبصوت عال لأبى .. وافترضت أن الحزن أفقد الجنرال صوابه ..

قال الخطاب :

ـ « فقدت طفلتى العزيزة التى همت بها حبًا .. فى الأيام الأخيرة من مرض (بيرتا) الحبيبة لم أستطع الكتابة لك .. قبل ذلك لم أدرك مدى الخطر .. لقد فقدتها والآن أدرك بعد فوات الأوان .. لقد ماتت فى سلام وبراءة على رجاء القيامة .. الشيطان الذى خان ضيافتى فعل هذا كله .. حسبت أننى أستضيف الحبور والبراءة صديقين لطفلتى .

لكن رباه ! كنت أحمق ! أحمد الله أن طفلتى ماتت من دون أن تدرك سبب معاناتها ..

سوف أكرس ما بقى من أيامى لاقتفاء أثر الوحش وتدميره .. قيل إن بوسعى تحقيق غرضى .. فى الوقت الحالى لا يوجد بصيص ضوء يهدينى ..

لا أستطيع استجماع كلماتى الآن فأنا مشتت .. فما أن أستعيد قواى حتى أكرس وقتى للتحقيق الذى قد يصل بى إلى (فيينا) .. سوف أقابلك بعد شهرين لو أننى ظللت حيًا ، ولو أنك سمحت لى .. ولسوف أخبرك بما لا أجرؤ على كتابته على الورق الآن ..

وداعًا وصلِّ من أجلى يا صديقى العزيز »

بهذه الكلمات انتهت الرسالة الغريبة .. وبرغم أننى لم ألق (برتا راينفلت) قط فإن عينى امتلأتا بالدموع .

كانت الشمس قد غربت وجاء الغسق إذ أعدت خطاب الجنرال لأبى .

كانت أمسية صافية ، وقد مشينا نتناقش حول معنى هـذه الرسالة العنيفة غير المترابطة . وكنا على بعد ميل من الطريق الذى يعبر أمام القلعة .. وكان القمر يسطع لامعًا . عند الجسر المعلق قابلنا مدام (بيرودون) ومدموازيل (دى لا فونتين) اللتين خرجتا للاستمتاع بضوء القمر .

كانت الفرجة التى عبرناها أمام عيوننـا الآن .. نـرى الطريق يمتد إلى جسر جميل قربه تقف قلعة كانت تحرسه فى الماضى .. وخلف القلعة مرتفع تغطيه الأشـجار ومجموعة من الصخور التى تلتف عليها أغصان اللبلاب . بينما طبقة رفيعة من الضباب ترتفع كأنها تغلف البعد بغلالة رقيقة ، وكان بوسعنا أن نرى النهر يتألق فى ضوء القمر .

ما من منظر أكثر روعة ، لكنه بدا لى مفعمًا بالشجن بعدما سمعت . ووقفت وأبى نرمق المشهد فى صمت ..

كانت مدام (بيرودون) بدينة رومانسية فى منتصف العمر تتكلم وتتنهد بشاعرية .. أما مدموازيل (دى لا فونتين)

التى كـان أبوهـا ألمانيًا مهتمًا بالسحر وأسـرار مـا وراء الطبيعة ، فقـد قالـت إنه عنـدما يسـطع القمـر بهذه القوة فإن هنـاك نشـاطًا روحيًا أكيدًا .. إنـه يـؤثر علـى الأحـلام وعلـى حالتنـا العقليـة ولـه أثـر مـادى واضـح علـى حياتنـا ..

قالت لنا إن ابن عمها الذى كان يعمل فى سفينة تجاريـة نام على ظهـره ذات ليلة مماثلة على ظهر السفينة ووجهه فى ضوء القمر ،ثم صحا وقد رأى فى الحلـم رجلاً عجوزًا يخدشه فى خده .. فإذا بملامحه تشوهت بفظاعة ولم تستعد سحنته طبيعتها ثانية .

قال أبى :

ـ « إننى أمر بإحدى حالاتى الاكتئابية الليلة .. »

ومرت لحظة صمت راح يردد فيها عبارات من شكسبير الذى يحافظ لنا على لغتنا الإنجليزية ، ثم قال :

- « فى الحقيقة لا أعرف سر تعاستى .. إنها تضنينى بحق .. لكن لا أعرف مصدرها .. أشعر كأن تعاسة عظيمة تقترب منا .. لعل لخطاب الجنرال دورًا فى هذا »

فى هذه اللحظة سمعنا صوت حوافر خيل وعجلات عربة على الطريق ..

وعلى الفور رأينا مصدر الصوت .. فى البداية ظهر فارسان وعبرا الجسر ثم عربة تجرها أربعة خيول .. ثم تلاها فارسان ..

بدا لنا أنها عربة شخص ذى شأن .. وقد رحنا نراقب هذا المشهد غير المألوف فى شغف ..

لقد صار المشهد أكثر إثارة لأنه ما أن تجاوزت العربة الجسر المنحدر حتى أصيب أحد الفرسان بالذعر ونقل ذعره لمن معه .. وعلى الفور انطلق الركب يركض بسرعة محمومة عبر الطريق نحونا .. وبسرعة الإعصار ..

وزادت إثارة المشهد تلك الصرخات الأنثوية الطويلة التى انبعثت من نافذة العربة .

تقدمنا للأمام فى فضـول ورعب وظل أبـى صامتًـا بينمـا عبرنا نحن عن ذعرنا .. لكن توترنا لم يطـل .. إذ أن هنـاك على الطريق الذى مشوا عليه شجرة زيزفون هائلة الحجم ، وعلى الجانب الآخر صليب صخرى عملاق .. فما إن رأتـه الخيول التى صار عدوها مفزعًا حتى انحرفت بحيث صارت العجلات على جذور شجرة الزيزفون .. عرفـت مـا سيحدث وأغمضت عينى وأدرت رأسى عاجزة عن رؤية هـذا .. فـى ذات اللحظة سمعت صرخات المربيتين .

فتح الفضول عينى فرأيت مشهدًا مروعًا .. جـوادان كانـا على الأرض والعـربة مقلوبة على جانبهـا ، وعجلتان مـن عجلاتهـا فـى الهـواء . كـان الرجـال يزيلـون الحطـام بينمـا سيدة تبدو ذات سلطة تقف وقد تعـانق كفاهـا .. ومـن حين لآخر ترفع منديلاً إلى عينيها .

ومن باب العربة رفعوا جسد سيدة صغيرة بدت لى ، وقد خلت من الحياة ..

أبى العزيز كان يقف الآن بالفعل جوار السيدة الأكبر سنًا وقبعته فى يده .. كما هو واضح يعرض مساعدته . لم يبد أن السيدة سمعته أو رأت أى شىء سوى الفتاة الصغيرة التى وضعوها على ضفة الخندق .

دنوت فرأيت أن الفتاة مصدومة لكنها بالتأكيد لم تمت .. وقد وضع أبى أنامله على نبضها ، وطمأن السيدة التى قالت إنها أم الفتاة .. إن النبض خافت غير منتظم لكنه محسوس ..

ضمت السيدة يديها ونظرت للسماء كأنها تعبر عن امتنانها ، ثم عادت لطابعها الدرامى المسرحى الذى أعتقد أنه طبيعة لدى بعض الناس .

كانت ما يمكن أن تعتبره امرأة جميلة بالنسبة لسنها .. فارعة الطول لكنها ليست نحيلة .. ترتدى المخمل الأسود .. شاحبة لها سحنة آمرة ..

سمعتها تقول :

ـ « أتراني ولدت للبؤس والشقاء ؟ هأنذا في رحلة حيـ
أو موت .. ومعنى أن أفقد ساعة هـو أن أفقد كل شـيء
لن تستعيد طفلتي صحتها قبل وقت طويل .. لا أجسر علـ
التأخر .. يجب أن أتركها .. مـا المسـافة التي تفصلنـا عـ
أقرب قريـة يـا سيدي ؟ يجب أن أتركهـا هنـاك فلـن أر
عزيزتي أو حتى أسمع عنها ثلاثة أشهر »

جذبت أبي من معطفه وهمست في أذنه :

ـ « أبي .. سلها أن تبقى معنا .. سيكون هذا رائعًا .. »

قال أبي بصوت عال :

ـ « لو أن المدام وثقت بـأن تتـرك طفلتها لعناية ابنتـ
ومربيتها مدام (بيرودون) .. وسمحت لـي بـأن أستضيفـ
حتى تعود ، فإن هذا سيكون تفضلاً منهـا علينـا .. ولسو
نعنى بها بكل ما تستحقه الثقة التي وضعتها فينا .. »

قالت المرأة في شرود :

ـ « هذا ليس بوسعى يا سيدى .. هذا عبء على كرمك وفروسيتك »

ـ « بل هو على العكس كرم عظيم يأتينا فى الوقت الذى احتجنا إليه فيه .. لقد أحبطت ابنتى بسبب سوء حظ أدى لفشل زيارة كانت تتوقع منها سعادة جمة .. إن أقرب قرية بعيدة جدًا وليس بها مكان يليق بابنتك .. وليس بوسعك جعلها تسافر أية مسافة دون أن تتعرض للخطر .. »

كان هناك شىء فى تلك المرأة شديد التميز .. شديد الجلال .. تشعرك بأنها شخص ذو حيثية بصرف النظر عن فخامة عربتها .

فى هذا الوقت عادت العربة لوضعها وتم ربط الخيول من جديد .

ألقت السيدة نظرة خالية من العاطفة على ابنتها ، تتناقض مع ما يتوقعه المرء من بداية المشهد ، ثم أشارت لأبى إشارة خفيفة وانتحت به بعيدًا عن مسمعنا .. حيث وقفت تهمس له بوجه صارم يختلف عن ذلك الذى كانت تتكلم به .

دهشت لأن أبى لم يلحظ التغيير ، كما كنـت أرغب بشد
فى معرفة ما يقال فى أذنه بهذه الجدية .

انتهت خلال ثلاث دقائق فمشت بضع خطـوات إلـى حيـ
كانت ابنتها راقدة ، وركعت جوارها لتهمس فى أذنهـا بضـ
كلمات كأنها تمنحها البركة وقبلتها على عجـل ، ثم صعد
إلى عربتها ..

فرقع الحوذيـان بسوطيهما فـانطلقت الخيول مسرعة
يتبع العربة هذان الفارسان فى المؤخرة .

★ ★ ★

الفصل الثالث

نحن نقارن الذكريات

راقبنا بعيوننا العربة حتى غابت عن بصرنا فى الغابات التى غمرها الضبـاب .. وتلاشـى صوت الحوافر فى الليل الصامت .

لم يبق من شىء يؤكد لنا أن المغامرة لم تكن وهمًا سوى الفتاة التى استطاعت أن تجلس وفتحت عينيها .لم أر وجهها لأنه كان ينظر للجهة الأخرى وسمعت صوتًا عذبًا يقول :

ـ « أين ماما ؟ »

أجابتها المدام (بيرودون) الطيبة وهدأت من روعها . أخيرًا بدأت الفتاة تفهم وتتذكر ما حدث ، وسرها أن أحدًا لم يصب بأذى .. وإذ عرفت أن أمها رحلت وتركتها هنا ، حتى تعود بعد ثلاثة أشهر بدأت تبكى .

كنت على وشـك التدخل عندمـا وضعت مدموازيل (دى لافونتين) يدها على ذراعى ، وقالت :

ـ « لا تقتربى .. يكفيها شخص واحد فى المرة حتى لا يصيبها الذعر »

فى الوقت ذاته أرسل أبى خادمًا على حصان ؛ ليحضر الطبيب الذى يعيش على بعد فرسخين ، وتم إعداد غرفة للسيدة الشابة .

كانت غرفة المعيشة عندنا غرفة كبيرة ذات أربع نوافذ تطل على الخندق والجسر المعلق ومشهد الغابة الذى وصفته . كانت مبطنة بخشب البلوط والمقاعد مغطاة بالقطيفة الحمراء .. بينما يكسو الجدران نسيج من الكنفاه تحيط به إطارات مذهبة كبيرة .. هنا كنا نتناول الشاى لأن أبى كان يصر على أن نتناول مشروبنا الوطنى بانتظام مع القهوة والمشروبات الأخرى .

هناك جلسنا فى تلك الليلة نتكلم عن مغامرة المساء ، وكانت الغريبة قد دخلت الفراش فغابت فى نوم عميق ..

قالت المدام :

ـ « هذه الفتاة أجمل مخلوقة رأيتها فى حياتى .. وهى فى ذات سنك .. وما أجمل صوتها ! »

تساءلت المدموازيل :

ـ « هل رأيتم امرأة فى العربة بعد أن أعادوا تقويمها ؟ امرأة لم تغادر العربة قط بل اكتفت بالنظر من النافذة ؟ »

لا . لم نر امرأة كهذه ..

وصفت لنا امرأة مخيفة تلبس السواد وتضع على رأسها ما يشبه العمامة .. لها عينان واسعتان لامعتان لم تكفا عن النظر من النافذة ..

ـ « هل لاحظتم شكل الخدم المخيف ؟ »

قال أبى الذى دخل الغرفة :

ـ « نعم .. قبيحو الوجه لهم سحنة آثمة .. أرجو ألا يسرقوا السيدة البائسة فى الأحراش .. لكنهم بارعون برغم هذا .. »

ـ « آمل أن السيدة الصغيرة ستخبرنا بالقصة كلها عندما تصحو غدًا .. »

ـ « لا أحسبها فاعلة »

قالهـا أبـى بابتسامة غامضـة وهزة رأس ، كأنـه يعـرف أكثر مما يقول .

عندمـا انفردت بـه سـألته عمـا قالتـه لـه السيدة عندمـا انتحت به جانبًا ، فلم يقتض الأمر الكثير من الضغط عليه ..

قال أبى :

ـ « كـانت محرجـة لأنهـا ستضايقنا بابنتهـا ، وقـالت إن ابنتها هشة حساسة لكنها لا تصاب بنوبات .. وإنهـا عاقلـة جدًا لا تتوهم أشياء ! »

ـ « ما أغرب هذا الكلام ! لا ضرورة له ! »

ـ « أيًا كان رأيك فهذا ما قالته .. وأضافت أن ابنتها لـن تلفظ حرفًا عن حقيقتهم .. واضـح أنهـا تجيد الفرنسية .. أدعو اللـه ألا أكـون قد تسرعت أو ارتكبت عمـلاً أحمـق باستضافتى الفتاة .. »

بالنسبة لى كنت مشتاقة للكلام معها ما إن يسمح لى الطبيب بذلك ..

أنتم يا من تعيشون فى المدن ، لا يمكنكم تصور لذة تعرف شخص جديد وسط العزلة التى تحيط بنا .

جاء الطبيب فى الواحدة صباحًا لكنى كنت عاجزة عن النوم ..

قال لنا أخبارًا مطمئنة عن الفتاة ، وقال إنها بخير حال .. لا مشكلة فى أن أراها الآن لو أردت .. هكذا طلبت مقابلتها فخرجت لى الخادمة التى كانت ترافقها تخبرنى أنها موافقة تمامًا ..

كانت ضيفتنا ترقد على فراش فى أجمل غرفة فى القلعة .. قطع من المخمل ولوحات فى كل ركن .. وجوار الفراش شموع .. كانت جالسة وجمالها المذهل يحيط به ثوب نوم حريرى موشى بالأزهار .

لكن ما الذى جعلنى أدنو من الفراش ثم أخرس ، وأتراجع للخلف ؟ سأقول لك ..

لقد رأيت ذات الوجه الذى زارنى ليلاً فى طفولتى ، والذى ظل ثابتًا فى ذاكرتى يلهمنى الرعب أعوامًا ..

نفس الوجه الجميل .. وعليه ذات التعبير المليء بالشجن ..

لكن سرعان ما تحول هذا إلى ابتسامة معرفة لطيفة .. ساد الصمت ، ثم قالت :

ـ « يا للروعة ! منذ اثنى عشر عامًا رأيت وجهك فى أحلامى وظل يسكن فيها منذ ذلك الحين »

تغلبت على شعور الرعب ، وقلت :

ـ « ومنذ اثنى عشر عامًا رأيت وجهك فى رؤيا حقيقية .. »

ازدادت ابتسامتها نعومة .. لقد ذهب كل ما حسبته غريبًا فيها .. عاد لى الاطمئنان ورحبت بها .. أخبرتها كم أن قدومها قد جلب لنا السعادة ..

أمسكت بيدها وأنا أتكلم .. كنت خجولاً ككل الوحيدين لكن الموقف جعلنى طلقة اللسان بل جريئة .. لمعت عيناها ونظرت لى واحمر وجهها ..

جلست جوارها ، فقالت :

- « يجب أن أخبرك برؤيـاى بصددك .. مـن الغريـب أن كـلاً منـا رأت الأخرى بهـذا الوضـوح .. كنـت طفلـة فـى السادسة من عمرى وصحوت من نوم متقلب لأجد أننى فـى غرفة تختلف عن غرفتـى .. بهـا خزانـات ثيـاب وأدراج ومقاعد .. كانت الأسرة خالية ولا أحد فى الغرفـة سواى .. نظرت حولى فراق لى شمعدان حديدى ذو فرعين . وزحفت تحت فراش كى أبلغ النـافذة لكن مـا إن خرجت مـن تحتـه حتى سمعت بكاء .. نظرت لأعلى بينما أنا بعد على ركبتى ، رأيتك أنت .. بالتأكيد أنـت .. كمـا أراك الآن .. فتـاة جميلـة ذات شعر ذهبـى وعينين زرقـاوين واسـعتين .. رأيتـك كمـا أراك الآن .. قهرنـى جمـالك فصعدت إلـى الفـراش لأطوقـك بذراعى وأعتقد أننا نمنا على الفـور .. فجـأة صحوت علـى صرخـة .. كنـت أنـت جالسة تصرخين .. أصـابنى الرعـب ووثبت إلى الأرض .. ويخيل لى أننـى فقدت الوعـى ، لكن عندما صحوت من جديد كنت فـى غرفة حضانتى ثانية .. لـم أنس وجهك منذ ذلك الحين .. »

الآن جاء دورى كى أحكى ذكرياتى ، فراحت الفتاة تصغى لها مندهشة ..

قالت :

ـ « لا أدرى من منا أجدر بالخوف من الأخرى .. لو أنك كنت أقل جمالاً لأصابنى الرعب منك .. لكن والحال كذا فإننى أشعر أننا تعارفنا منذ اثنى عشر عامًا .. كأن قدرنا كان أن نكون صديقتين منذ طفولتنا .. لم أظفر بأصدقاء قط فهل يمكن أن نكون كذلك ؟ »

ونظرت لى عيناها السوداوان فى لهفة .

كنت أشعر بانجذاب نحوها بالفعل .. خالط هذا نوع من النفور .. لكن الانجذاب كان هو الأقوى ..

شعرت بأن نوعًا من الوهن والإرهاق يباغتها فقلت لها مساء الخير وأخذت فى الانصراف بسرعة .. وقلت لها :

ـ « الطبيب يرى أنه من الحكمة أن تجلس خادمة معك الليلة .. سوف تحبين هذه الخادمة فعلاً .. »

ـ « هذا لطيف منكم .. لكنى لا أستطيع النوم أبدًا عندما يكون هناك شخص فى الغرفة معى .. لا أريد عونًا .. لكنى برغم هذا أخاف اللصوص فعلاً ، فقد سرق بيتنا ذات مرة وقتل خادمان .. لذا أغلق حجرتى علىّ ليلاً .. صارت هذه عادة .. أعتقد أننى أرى مفتاحًا فى ثقب الباب .. »

ثم عانقتنى وهمست فى أذنى :

ـ « عمت مساء يا عزيزتى .. من الصعب أن أتركك لكننا سنلتقى غدًا .. »

وغاصت فى الوسادة وراحت عيناها تتابعاننى ..

تأثرت كثيرًا بالعاطفة الحارة التى أظهرتها نحوى .. برغم أننى لا أستحقها ..

وجاء اليوم التالى والتقينا .. كان جمالها كما رأيته كاملاً .. إنها أجمل من رأيت فى حياتى . وبالتأكيد نسيت تلك الذكرى المرعبة ، وهى أيضًا اعترفت أنها عاشت ذكرى مماثلة ، لذا ضحكنا كثيرًا ، ونحن نسترجع أوهامنا السابقة .

* * *

الفصل الرابع

عاداتها .. ونزهة قصيرة

قلت لكم إننى فتنت بها .. لكن بعض أشياء منها لم ترق لى ..

كانت أطول قامة من المتوسط المعتاد للنساء . كـانت نحيلة حلوة الشمائل ، فيما عدا أن حركاتها كانت متثاقلة بطيئـة .. بطيئة جدًا .. لا شىء فى مظهرها يوحى بقلة الكفاءة ، فقد كانت ملامحها جميلـة متناسقة ، وكـان شعرها رائعًا ثريًا وطويلاً لونه بنى داكن جميل فيه لمسة من ذهب ..

وفى غرفتهـا كـانت تجلس على مقعدها وتتكلم بصوت عذب خافت .. رباه ! لو كنت أعرف !

قلت إن هناك أشياء لم ترق لـى .. مثلاً كانت متحفظة دومًا بصدد نفسها وأمها وأسرتها وكل ما يتعلق بهـا .. يجب أن أعترف أننى كنت أفتقر للحكمـة .. كان على أن أحترم نصيحة السيدة ذات الرداء المخملى التى قالتها لأبى .. لكن الفضول عاطفة لا تكل ولا تمل ، ما من فتاة تحتمل ألا يُروى هذا الفضول .. ما الضرر فى أن تخبرنى بما كنت أتحرق شوقًا لمعرفته ؟ هل هى لا تثق بى ؟

لم لا تثق بى وقد وعدتها أننى لن أفشى حرفًا مما تخبرنى به لكائن أرضى يتنفس ؟

كان لديها برود يتجاوز سنها ، فى ابتسامتها وفى رفضها أن تمنحنى بصيص نور ..

لا أستطيع القول إننا تشاجرنا بصدد هذا .. وكان من سوء الخلق أن ألح عليها لكن لم يكن هذا بوسعى .. كل ما سمحت لى بمعرفته ثلاثة أشياء : اسمها (كارميللا) .. أسرتها عريقة نبيلة .. منزلها يقع غربًا ..

لم تخبرنى باسم أسرتها ولا شعار نبالتها ولا حتى بلدهم ..

لا تتوقع أنى ضايقتها بأسئلتى .. فقط رحت ألمح ومرة أو اثنتين سألتها بشكل مباشر .. لكنى كنت أفشل فى كل الظروف .. لكنها كانت تصاحب امتناعها هذا بنوع من الحزن الراقى وإظهار ثقتها فىَّ بحيث لم أكن أتضايق منها ..

ـ « لا تتعبى نفسك يا حبيبتى ولا تسألى عنى .. فقط ثقى بى .. »

كانت كلماتها ومخاوفها غامضة بالنسبة لي ، وكانت تعانقنى من حين لآخر فأشعر برغبة غريبة فى التحرر منها

لكنى لا أجد القوة .. كانت كلماتها تبـدو لأذنى كأنها أغنيـة مهـد وكانت تجعـل مقـاومتى شـبه نعاس .. لا أفيق منـه إلا حين تبعد ذراعيها عنى ..

ثمة شعور مبهم بـالنفور لكنـى كنت أدرك أن حبى لهـا يصل لدرجـة الهيام ، مـع مقـت شـديد .. أعـرف أن هـذا تناقض لكن ليس بوسعي أن أشرح مشاعرى بلغة أوضح .

الآن بعد عشر سنوات أكتب هذا ويدى ترتجف إذ أتذكر الأحداث التى كنت أمر بها ولا أدرك كنهها .. أشياء كهذه أتذكرها بصعوبة برغم وضوح باقى تفاصيل قصتى .. أعتقد أن فى حياتنا أحداثًا عاطفية صاخبة تصير وسط الذكريات الأخرى باهتة شبه منسية .

كانت تمسك بيدى وتقول :

ـ « أنت لى .. سوف تكونين لـى .. وأنـا وأنـت سنكون واحدًا للأبد .. »

ثم تسقط فـى مقعدها ويداها الصغيرتـان علـى عينيهـا ، تاركة إياى أرتجف ..

وكنت أسألها :

ـ « هل نحن قريبتان ؟ ماذا تقصدين ؟ أنا لا أعرفك ولا أعرف نفسى حينما تتكلمين بهذه الطريقة »

لم أستطع قط أن أكون نظرية مرضية بصدد هذه اللحظات الغريبة .. لا أستطيع أن أفسرها بالخداع أو بشدة الحب ..

ترى هل تزورها لحظات جنون نتيجة لإهمال أمها المتعمد لها ؟ أم أن هذه لعبة من ألعاب التخفى التى قرأت عنها فى كتاب قديم ؟

ماذا لو أن ولدًا عاشقًا تخفى فى ثوب فتاة وجاء بيتنا بمساعدة تلك المغامرة البارعة المسنة ؟ لكن كانت هناك أشياء كثيرة تدحض هذه الفرضية .. كانت فتاة تمامًا تتصرف كفتاة .. وكانت واهنة بشكل يتناقض مع فكرتى عن الرجال .

فى نواح أخرى كانت طباعها غريبة .. ليس بالنسبة لسيدة مدنية مثلك ، لكنها كذلك بالنسبة للريفيين من أمثالنا .. كانت تصحو من نومها متأخرًا جدًا .. ليس قبل الواحدة ظهرًا .. ثم تتناول الشيكولاته الساخنة ولا تأكل .. ثم نخرج فى نزهة .. عندها كانت تظهر التعب بسرعة وتعود للقلعة أو تجلس على أحد المقاعد بين الأشجار . لم أر فى حياتى من يقهره التعب بسرعة مثلها .

كان هذا تعبًا جسديًا خالصًـا لا يعترف بـه عقلها ، لأنها كانت تتكلم بطلاقة وذكاؤها لا يهن لحظة .

جلسنا هناك ذات عصر فمرت بنا جنازة .. كانت جنازة فتـاة جميلة شابة .. ابنة أحد حراس الغابـة عرفتها .. وكـان أبوها المسكين يمشى وراء تابوت ابنته وقد تحطم قلبـه تمامًا إذ كـانت ابنته الوحيدة .

وقفت كى أظهر احترامى وشاركت فـى النشيد الجنـائزى الذى بدا لى عذبًا ، هنا هزتنى صاحبتى بنوع مـن الخشـونة فاستدرت لها . قالت فى جفاء :

ـ « ألا تسمعين مدى نشاز هذا اللحن ؟ »

قلت لها :

ـ « بل أعتقد أنه عذب .. »

وكنت متضايقة من مقاطعتي ، وخشيت أن يسمعنا النـاس فى الموكب المار أمامنا . عدت للغناء فقالت (كارميللا) :

ـ « أنت تثقبين أذنى .. ثم كيف تعرفين أن دينـى ودينـك متماثلان ؟ إن طقوسكم لا تروق لى وأنـا أكره الجنازات .. لماذا ؟ سوف تموتون .. الكل سيموت .. والكل سيكون أكثر سعادة عندما يفعل ذلك ! »

ـ « تعرفين أنها ستدفن اليوم .. »

ـ « هى ؟ لا أبالى بالفلاحين .. ولا أعرف من هى .. »

ـ « هى فتــاة بائسـة رأت شبحًا منذ أسبوعين .. ومن لحظتها تحتضر حتى ليلة أمس »

ـ « لا تتكلمى عن الأشباح .. فلن أنام الليل لو فعلت »

ـ « أتمنى ألا يكون هذا وباء قادمًـا .. لقد مـاتت زوجـة مربى الخنازير منذ أسبوع .. وقـد اعتقدت أن شـيئًا أمسك بحنجرتها وهى نائمـة وكـاد يخنقهـا .. يقول بابـا إن هـذه الرؤى تسبق الأوبئة .. »

ـ « لحسن الحظ أنها ماتت ولن تـؤذى آذاننـا بأناشيدها الجنائزية النشاز .. هلمى اجلسى جوارى وامسكى بيدى .. اضغطى . اضغطى أكثر .. »

فجأة مر بوجهها تغيير أثار رعبى للحظة .. لقد اربد ثم احمر بشكل مـروع .. وقطبت وزمت شفتيها .. ثم راحت ترتجف كأنها مصابة بالملاريا .. بدا كأن كل طاقاتها حشدت لمقاومة نوبة ، وسمعت صرخة بعيـدة من شفتيها .. وفى النهاية بدا أنها تهدأ وأن نوبة الهستيريا زالت .

ثم قالت :

ـ « هذه هى نتيجة خنق البشر بأغان جنائزية ! »

كانت هذه أول مرة أرى فيها علامات الوهن التى تكلمت عنها أمها .. أول مرة أراها تتصرف بهذه الطريقة .

★ ★ ★

ذات مرة كنا نقف فى النافذة الموجودة بغرفة المعيشة عندما رأيت فى فنائنا متسكعًا أعرفه جيدًا .. كان يزور القلعة مرتين فى العام . كان أحدب له ملامح معينة تصاحب هذا التشوه .. وكان يرتدى قبعة مدببة ويضحك ضحكة عريضة تظهر نابيه .. ومن خلفه كان يجر فانوسًا سحريًا وصندوقين ، أعرف أن فى أحدهما سلامندر(*) والآخر به وحش ملفق صنعه من قطع من القردة والببغاوات وخيطها بعناية .. ومن حزامه تتدلى أشياء كثيرة يستعملها فى عروض الحواة .. وإلى جواره كلبه .

توقف المشعوذ عند منتصف الجسر ونزع قبعته وانحنى لنا فى احترام قائلاً شيئًا بالفرنسية .. ثم أخرج كمانًا وراح يعزف فى نشاط وحيوية حتى جعلنى أنفجر ضحكًا برغم نباح الكلب ..

(★) نوع من الضفادع ..

دنا من نافذتنا ، وبدأ يعرض علينا بضاعته السحرية مـن تعاويذ لصـد الشرور عنـا .. فاشترت (كـارميللا) تعويـذة وكذا فعلت أنا ..

كان ينظر لنا .. لحظة شعرت أن عينـه السوداء تحملق فينا بتدقيق كأن هناك شيئًا أثار فضوله .. ثم مد يده يفتح حقيبة جلدية مليئة بغرائب الأدوات المعدنية ..

ـ « فليأخذ الله هذا الكلب ! » ثم وجه الكلام لى أنـا أجيـد يا سيدتى ضمن أشياء كثيرة فـن علاج الأسنان .. إن ضيفتك الكريمة كما أرى لها أنياب طويلة حادة .. حادة كالإبرة .. بنظرتى الثاقبة أرى هذا .. ها ها !! فإن كان يؤذى السيدة الصغيرة كما أعتقد فهأنذا .. بمبردى وكلابتـى .. لأجعلـه غير مدبب ثلمًا .. هذا لو سمحت لى .. هل تجرأت ؟ هل تجاوزت حدودى ؟ »

بالفعل بدا أن السيدة الصغيرة غاضبة جدًا وهى تنسحب من النافذة .

قالت فى حنق :

ـ « كيف يجرؤ هذا المشعوذ علـى إهانتى ؟ أين أبـوك ليأخذ بحقى ؟ لو كان أبى هنا لربط هذا النصاب إلـى شجرة وأمر بجلده ، ثم وسمه بشعار القلعة ! »

ثم بدأت تهدأ فجأة ..

عندما عاد أبى فى المساء كانت معنوياته منخفضة .. أخبرنا أن هناك حالة وفاة أخرى كسابقاتها .. لقد مرضت أخت فـلاح فى إقطاعيته ومن الواضح أنها قد قاربت النهاية .

قال أبى :

ـ « كل هذه الوفيات أسبابها طبيعيـة .. هؤلاء البؤسـاء ينقلون عدوى الخرافات لبعضهم من ثم يتخيل كل منهم ذات صور الرعب التى رآها جيرانه .. على كل حـال نحـن بين أيادى الله وما من شىء مكروه يمكن أن يصيبنا إلا ما كتب لنا .. إنه خلقنا وهو يرعانا .. »

قالت صديقتى الشابة :

ـ « خلق ؟ هذا المرض الذى يهـاجم الفلاحيـن طبيعـى .. الطبيعة ! كل شىء يأتى منها .. كل ما فى الأرض والسـماء يعمل ويوجد حسب قوانين الطبيعة .. أليس كذلك ؟ »

قال أبى من دون أن يرد عليها :

ـ « سوف يأتى الطبيب اليوم .. أريد أن أعرف ما يفكر فيه .. »

قالت (كارميللا) :

ـ « الأطباء لم يفيدونى قط »

ـ « هل كنت مريضة ؟ »

ـ « مريضة جدًا .. أكثر مما تتصـور .. أصبت بذات الداء لكنى نسيت كل شىء ما عدا الألم والوهن .. »

وطوقت خصرى وغادرنا الغرفة بينما انهمك أبى فى دراسة بعض الأوراق على المكتب .

جاء الطبيب فى ساعة متأخرة واجتمع مع أبى بعض الوقت .. كان رجلاً بارعًا فى الستين يحلق وجهه ليصير ناعمًا كاليقطينة .. وعندما غادرا كان السرور باديًا على أبى ..

قال الطبيب :

ـ « على كل حال لا تنس أن الحياة والموت أمران غامضان لا نعرف عنهما شيئًا »

وانصرفا .. لم أعرف وقتها ما يعنيه الطبيب .. لكن أحسبنى فهمت الآن ..

* * *

الفصل الخامس

تشابه مدهش

فى تلك الليلة وصـل من (جراتس) ابن منظف الصـور وهو يركب عربـة يجرهـا حصـان ، عليهـا صنـاديق امتـلأت بالصور .. عندما يصل زائر من (جراتس) كنا نلتف حولـه لنسمع آخر الأخبار .

كانت الخادمات يستقبلنه أولاً ويسمعن منــه الأخبار وهو يلتهم العشـاء ، ثم نقابلـه نحن وهـو فـى الممـر مسلحًا بالمطرقة والإزميل ليعلق الصور .. بينما أبى يمسك بقائمـة بها أرقام الصور التى أخذها الرجل لينظفها .

كانت (كارميللا) جالسة ترقب المشهد فى فتور .. بينمـا راحت الصور التى أرسلناها له لتجديدهـا تعلق واحدة تلو أخرى . إن أمـى نمساوية من أصل مجرى وكـانت أكـثر الصور فى دارنا تخصها .. لا أعتقد أن الصور كانت جميلـة لكنها بالتأكيد كانت قديمة جدًا .. بعضها كنت أراه لأول مرة بعد التجديد لأن الدخان والغبار كان يحجبها ..

قال أبى :

ـ « ثمة صورة لم أجدها بعد .. على ركنها تجد اسمها .. (مارشا كارنشتاين) .. بتاريخ ١٦٩٨ .. »

تنكرت الصورة .. كانت صورة صغيرة شبه مربعة بلا إطار .. لكنها كانت مغطاة بالسواد بحيث لا تميز شيئًا منها ..

أخرجها منظف اللوحات فى نوع من الفخر وعرضها علينا .. كانت مذهلة .. كانت الجمال بعينه ! كانت نسخة أخرى من (كارميللا) !

صحت فى دهشة :

ـ « (كارميللا) يا عزيزتى ! إنها لمعجزة ! هأنت ذى حية فى هذه الصورة .. أليست جميلة يا بابا ؟ حتى تلك الوحمة فوق حنجرتها! »

ضحك أبى ، وقال :

ـ « بالفعل هو تشابه مدهش .. »

ـ « هلا سمحت لى بتعليقها فى غرفتى يا بابا ؟ »

ـ « بالطبع يا عزيزتى .. »

لم يبد على (كارميللا) أى تقدير لهذه المحادثـة .. وبدا كأنها لم تسمعها .. كانت مسترخية فى مقعدها تنظر لى فـى تأمل .. وابتسمت فى نوع من الانتشاء .

أعدت قراءة الاسم :

ـ « ليس (مارشا) .. إنه (ميركالا) كونتيسة (كارنشتاين) .. إن أمى من نسل (كارنشتاين) .. أى إننى أنتمى لهم »

قالت الفتاة :

ـ « آه . وأنا منهم .. لكنه نسب قديم جدًا .. هل مـازال هناك أحياء بينهم ؟ »

ـ « لا أحد .. لقد فنت الأسرة فى الحروب الأهليـة علـى قدر علمى .. لكن خرائب قلعتهم على بعد ثلاثة أميال من هنا »

قالت فى تراخ :

ـ « رائع ! لكن انظرى إلى ضوء القمر ! كم هو جميـل ! ما رأيك فى أن نقوم بجولة لنشاهد الطريق والنهر ؟ »

ـ « إنها مثل الليلة التى جئتنا فيها »

نهضت وخرجنا معًا .. وفى صمت مشينا عبر الجسر ..

ـ « إذن تذكرين ليلة مجيئى .. هل أنت سعيدة بذلك ؟ »

قالتها بصوت كالهمس .. فقلت :

ـ « مسرورة جدًا يا عزيزتى .. »

ـ « وقد طلبت أن تعلقى الصورة فى غرفتك لأنها تشبهنى ؟ »

وأراحت رأسها على كتفى فقلت لها :

ـ « أنت رومانسية جدًا يا (كـارميللا) .. لـو حكيت لـى قصتك التى تحفينها لوجدنا أنها مليئة بالرومانسية .. لا بد أن هناك قصة حب كبيرة فى حياتك .. »

ـ « لم أحب أحدًا قط .. لو أحببت لاخترتك أنت ! إننـى أعيش فيك .. ولسوف تموتين من أجلى .. فأنا أحبك ! »

تراجعت عنها فى رعب ..

كانت تنظر لى بوجه خلا من كل تعبير وكل لون ..

ـ « هل أنت بخير يا (كارميللا) ؟ يبدو لى أنـك موشكة على فقدان الوعى .. »

ـ « نعم .. أنا كذلك .. سوف أستعيد صحتى بعد قليـل .. فقط دعينا نعد »

وعلى الباب قالت :

ـ « دعينا نلق نظرة أخيرة .. إنها المرة الأخيرة على الأرجح التى أرى فها ضوء القمر معك »

بدأ الرعب ينتابنى من أن تكون أصيبت بذلك الوباء الغامض الذى يغزو البلاد من حولنا . لكنها طمأنتنى أنها بخير ، ومرت الليلة من دون أن تصيبها نوبات الافتتان تلك التى تصيبنى بالرعب ..

لكن حدث فى تلك الليلة شىء جعل أفكارى تتخذ منحنى جديدًا .. ويبدو أن هذا الشىء جعل خمولها الملحوظ يتحول لنوع من النشاط العابر ..

* * *

الفصل السادس

رعب غريب

عندما اجتمعنا فى غرفة المعيشة ، رحنا نحتسى القهوة والشيكولاته مع المربيتين لكن (كارميلا) لم تشارك .. ثم رحنا نلعب الورق .. وجاء أبى ليظفر بما يسميه (طبق الشاى) .

انتهت اللعبة فجلس أبى جوار كارميلا على الأريكة وسألها عما إذا كانت سمعت أخبارًا عن أمها منذ وصولها .

ـ « لا .. »

سألها عن عنوان مناسب للمراسلة .. فأجابت فى غموض :

ـ « لا أستطيع أن أجيب .. لكننى كنت أفكر فى الرحيل .. أنتم ودودون جدًا مضيافون وقد سببت لكم متاعب جمة .. أعتقد أن بوسعى أن آخذ عربة وأبحث عنها غدًا فأنا أعرف أين يمكن أن تكون لكن ليس بوسعى أن أخبركم »

ـ « لا يجب أن تفكرى فى شىء كهذا .. لن أسمح برحيلك إلا تحت رعاية أمك التى تكرمت بالموافقة على تركك هنا حتى تعود .. لكن هذه الليلة يتزايد ذلك الوباء الغريب الذى يغزو

الجيرة ، وإننى لأشعر بمسئولية خطيرة خاصة مع افتقارى لنصائح أمك .. لكنى لن أسمح برحيلك من دون توجيه مباشر منها .. »

أجابت وهى تبتسم فى حياء :

ـ « شكرًا لك ألف مرة يا سيدى على كرم ضيافتك .. لم أشعر قط بالسعادة كما شعرت بها فى قصرك الجميل .. فى رفقة ابنتك العزيزة »

ثم إنه نهض وبطريقته القديمة الفخمة لثم يدها .

رافقت (كارميللا) كعادتى لغرفتها ، وجلست أثرثر معها قبل أن تدخل الفراش ، ثم تركتها .

* * *

أتساءل إن كانت ضيفتنا الجميلة لا تصلى أبدًا .. لم أرها راكعة قط وفى الصباح لم تكن تنزل حتى تنتهى صلوات أسرتنا .. ولم تحضر قط صلاة المساء معنا . لم أسمعها قط تتكلم فى أى شىء دينى .. لو كنت أعرف العالم أكثر لما أثار دهشتى هذا التجاهل .

إن طباع الناس العصبيين معدية ؛ لذا اكتسبت من كارميللا عادة إغلاق غرفة النوم علىّ ليلاً .. وتعلمت منها البحث السريع فى حجرتى كى أتأكد من عدم وجود سفاح مختبئ .

هكذا كنت أخلد للنوم مع ضوء فى غرفتى .. تلك عادة يصعب أن أتخلص منها .. هكذا بوسعى أن أنال راحتى فى سلام .. لكن الكوابيس تخترق الجدران الصخرية ، وتسخر من الأقفال .

رأيت حلمًا مخيفًا فى تلك الليلة .. لا أستطيع أن أعتبره كابوسًا لأنى كنت مدركة أننى فى غرفتى وفى فراشى .. كنت أرى شيئًا أسود يتحرك عند قدمى فى الفراش .. لم أتبين كنهه أولاً ثم أدركت أنه يبدو كقطة سوداء عملاقة .. كانت تروح وتجيء بذلك القلق الشرير الذى يميز الوحوش الحبيسة فى قفص .. لم أستطع الصراخ لكننى كنت مذعورة طبعًا ..

كان يدنو منى أكثر فأكثر .. حتى لم أعد أرى إلا عينيه .. ثم صعد إلى الفراش وعيناه قرب وجهى ، ثم شعرت بألم إذ اخترق ناباه المتباعدان بوصة صدرى ..

صحوت صارخة لأجد أن الشمعة تضيء الغرفة .. رأيت خيال أنثى تقف عند قدم السرير .. كانت فى ثوب أسود

واسع وشعرها يغطى كتفيها .. ما كانت الصخرة لتقف بثبات أكثر .. لم تبد منها أية علامة على التنفس ..

وفجأة بدا أنها تقترب من الباب .. الباب ينفتح وهى تعبر منه ..

استعدت قدرتى على التفكير ، فكان أول ما خطر لى أن كارميللا كانت تلعب حيلة معى .. جريت للباب ففوجئت به موصدًا كما هو من الداخل ..

خفت أن أفتحه وأصابنى الرعب ..

دخلت فراشى وتدثرت بأغطيتى حتى الصباح ..



الفصل السابع

الانحـــــدار

لا جدوى من محاولة أن أشرح مدى الرعب الذى أذكره به تلك الليلة حتى اليوم . لم يكن رعبًا لحظيًا كالذى تخلفه الكوابيس إنما هو رعب ينمو مع الزمن ، وبدا كأنما يتصل بالغرفة التى شهدت ذلك الظهور الشبحي .

لم أستطع فى اليوم التالى أن أتحمل لحظة وحدة ، لكنى لم أخبر بابا .. اكتفيت بأن أخبر المربيتين بما يثقل على روحى .

ضحكت المدموازيل لكن أعتقد أن مدام (بيرودون) شعرت بقلق .

قالت المدموازيل :

ـ « بالمناسبة .. إن ممر شجر الزيزفون وراء نافذة غرفة كارميلا مسكون ! »

قالت المدام :

ـ « كلام فارغ ! من قال هذا ؟ »

ـ « (مارتين) قال إنه جاء مرتين عند بوابة الفناء قبل الشروق ، فرأى نفس الشبح الأنثوى يمشى فى طريق أشجار الزيزفون .. كان خائفًا جدًا وهو يحكى لى .. لم أر فى حياتى أحمق خائفًا مثله .. »

قلت :

ـ « لا تقولى هذا لكارميللا .. فهى ترى هذا الممر من نافذتها وهى أكثر منى جبنًا »

جاءت (كارميللا) متأخرة نوعًا هذا اليوم . كانت تحكى عن كابوس داهمها ليلاً إذ رأت شيئًا أسود كالنمر الكبير فى غرفة نومها ، وأنه انقض عليها لكنها أمسكت بتلك التعويذة التى اشترتها من الأحدب ووضعتها تحت الوسادة ، فاختفى ذلك الشىء .

كنت قد تركت تعويذتى فى مزهرية فى غرفة المعيشة ..

اليوم لا أذكر بالضبط كيف استجمعت شجاعتى لأنام فى غرفتى ثانية وحدى .. لكنى قمت بتثبيت التعويذة على وسادتى ونمت كما لم أنم من قبل ..

مـرت الليـلة التالية على خير كذلك .. كان نومى عميقًـا بلا أحلام .. لكنى صحوت شاعرة بأسى وشجن وإن لم يكـن هذا شعورًا سيئًا ..

حكيت لكارميلا القصة فقالت إنها لم تر كوابيس هى الأخرى ..

ـ « ما سبب هذا فى اعتقادك ؟ مم صنعت هذه التعويذة ؟ »

ـ « لابد أنها غمست فى عقار معين يعمل ترياقًا للـبرداء (الملاريا) .. »(*)

ـ « أى أنه يؤثر على الجسد فقط ؟ »

ـ « طبعًا .. لا يمكن أن تخاف الشياطين مـن قطعة جلد لها رائحة الصيدليات .. لا يوجد سحر فى الموضـوع .. كل شىء يمكن تفسيره بأسباب طبيعية »

هكذا تعددت تلك الليالى التـى أنـام فيهـا جيدًا ثـم أصحـو بشعور شجن غريب . بـدأت فكـرة الغوص لأسفل تستحوذ علىّ وبدأت أشعر بأننى أموت .. وقبلت هـذه الفكـرة ببطء شديد .. حتى لو كانت حزينة فقد شعرت روحى بعذوبتها ..

(*) فى ذلك الزمن كانت أية حمى تعتبر ملاريا .. بل كـان أى مـرض يعتبر ملاريا .. وبالطبع افترضت الفتاة أن الكوابيس التـى تراهـا ناجمـة عن هذا المرض ..

ظلت كارميلا لطيفة معـى ، وإن ازدادت لحظات توددها الغريبة نحوى ..

لا أعرف كيف حدث هذا ، لكنى كنت تحت وطـأة أغرب مرض كتب لشخص فان أن يراه .. كنت مفتونة به حتى بدأ نوع من الرعب يخالطه .. كان هذا الشعور يزداد عمقًا حتى صبغ كل حياتى ..

بدأت النقطة التى عندها رحت أهبط فى فوهة (أفرنـوس Averno) (*) .. وبدأت أحلام غامضة تزورنى لا أذكر منها إلا القليل ..

لقد مرت ثلاثة أسابيع على بداية هذا التدهور ، وقد صار منظرى الآن ينبئ عن معاناتى ..

صارت عيناى واسعتين محاطتين بالسواد .. وشحبت جداً ..

راح أبى يسألنى عما إذا كنت بخير فكنت أصر بعناد على أننى كذلك .. وبشكل مـا كـان هـذا صحيحًـا فقد كـان بدنـى سليمًا .. فقط تلك الأوهام التى أحتفظ بها لنفسى ..

(★) فوهة فى اليونان كئيبة الشكل ؛ لذا اعتبرها الإغريق مدخل العالم السفلى .. المراد هنا أنها موشكة على الموت ..

لا أعتقد أنه ذلك الـداء الـذى أطلق عليـه الفلاحون هنـا اسم (أوبير oupire) لأننى مريضة منذ ثلاثة أسابيع بينمـا الداء لا يترك ضحيته حية أكثر من ثلاث ليال .

سأحكى لك الآن حلمًا قادنى لكشف غريب .

ذات ليلة سمعت فى الظلام صوتًا ناعما وبرغم هـذا كـان شنيعًا يقول لى : « أمك تحذرك من السفاح .. »

وفى هذه اللحظة أضيئت الغرفـة بشكل ما ، ورأيت كـارميللا فى ثوب نومها الأبيض ، وقد اغتسلت من قمة رأسها حتـى أخمص قدميها فى الدم !

نهضت صارخة وقد حسبتها قتلت ، وكـل ما أذكـره بعد هذا هو وقفتى فى الردهة أصرخ .

هرعت المربيتـان لى مـن غرفتيهمـا ، وأضاءتا مصباحًـا فلما رأيتا مظهرى فهمتا ..

أصررت علـى قرع بـاب كـارميللا .. رحنـا نــدق البــاب ونناد ى بلا جدوى ..

ازداد رعبى ، لأن البـاب موصد من الداخل .. عدنـا لغرفتـى ورحنا ندق الجرس .. ما كان أبى ليسمع هذا الصوت لأن غرفته

بعيدة .. وما كانت واحدة منا تجسر على قطع الممرات الرهيبة الواصلة إلى غرفته ..

جاء الخدم وكنت قد ارتديت روبًا وخفًا فواصلنا نداء (كارميللا) بلا جدوى ..

طلبت من الرجال اغتصاب القفل .. ففعلوا ذلك بينما رفعنا أصواتنا عالية على الباب ..

انفتح الباب فرأينا الغرفة بوضوح .. لم تكن هناك إجابة .. كل شيء كان مرتبًا كما تركتها عندما ودعتها مساء .. لكن (كارميللا) قد اختفت ..

* * *

الفصل الثامن

البحـــث

بدأنا نهدأ نوعًا عندما وجدنا أن الغرفة غير مقلوبـة .. وخطر للمدموازيل أن كارميلا صحت خائفة على صوت الدقات على الباب فتوارت تحت الفراش أو خلف ستار .. بالطبع لن تخرج ما لم ينصرف كبير الخدم ورجاله ..

رحنا نناديها من جديد وقد ازداد رعبنا .. توسلت لكارميلا إن كانت تلعب لعبة سخيفة أن تقطعها لأن رعبنا شديد ..

الآن كنت مقتنعة أنها ليست فى الغرفة .. هـذا غريب ؟ هل تراها اكتشفت ممرًا سريًا من تلك الممرات التى قيـل إنهـا تمـلأ القلعة؟.. إن كان الامر كذا فلسوف يتضح سريعًا ..

كانت الرابعة صباحًا ففضلت أن أمضى بقية الليل فى غرفـة المدام ..

كان القلق عامًا فى اليوم التالى وتم تفتيش كل ركـن فـى القلعة .. حتى بدأ أبى يفكر فى نـزح البحيرة .. وراح يفكـر قلقًا فيما يقول للأم المسكينة لدى عودتها ..

فى الساعة الواحدة صعدت لغرفة كارميلا ؛ فأصابنى الذهول لأنها كانت هناك تجلس إلى منضدة التزيُن ! لم أصدق عينى ! كان الرعب على وجهها وأشارت لى فى صمت كى أقترب ..

جريت نحوها فى سرور وعانقتها وقبلتها ، ودققت الجرس منادية أبى ..

ـ « أين كنت أيتها العزيزة ؟ لقد قتلنا القلق عليك »

قالت :

ـ « ليلة البارحة كانت ليلة العجائب »

ـ « اشرحى لى »

ـ « فى الثانية صباحًا كنت نائمة وراء الباب الموصد .. لم أحلم ولم يقلقنى شىء .. لكنى صحوت الآن لأجد نفسى على الأريكة .. وجدت باب غرفتى محطمًا .. كيف حدث هذا دون أن أستيقظ ؟ لابد أن الضوضاء كانت عالية .. كيف لم أصح أنا التى يوقظنى النسيم ذاته ! »

هنا دخل أبى والخدم الغرفة ، وغرقت كارميلا فى بحر من الأسئلة والتهانى .. لم يكن لديها أى تفسير لاختفائها ، وما قالته كان أقل تفسير معقول ..

راح أبى يذرع الغرفة مفكرًا فرأيت كارميللا تحدجه بنظرة طويلة سوداء ..

اقتادها إلى الأريكة وجلس جوارها ، وقال :

- « هلا سمحت لى يا عزيزتى بأن أسألك سؤالاً ؟ »

قالت :

- « ومن لديه الحق أكثر منك ؟ سل ما تريد .. لكن قصتى هى الحيرة والظلام .. لا أعرف أى شىء آخر .. سل ما تريد لكن تذكر الحدود التى وضعتها ماما .. »

- « بالطبع يا طفلتى العزيزة .. لا أريد التطرق للمواضيع التى ترغب أمك ألا نطرقها .. إن أعجب ما حدث ليلة أمس هو أنك انتزعت من فراشك وغرفتك دون أن تستيقظى .. وهذا حدث والنوافذ موصدة والأبواب مغلقة من الداخل .. سوف أخبرك بنظريتى لكن لابد من سؤال أولاً .. »

خفضت كارميللا رأسها فى عزيمة خائرة ، بينما حبست أنفاسى أنا والمربية ..

- « سؤالى هو : هل قيل لك أنك تمشين فى نومك يومًا ما ؟ »

ـ « منذ كنت طفلة لم يحدث هذا .. »

ـ « لكنك مشيت فى طفولتك ؟ »

ـ « نعم .. مربية عجوز أخبرتنى بهذا .. »

ابتسم أبى :

ـ « حسن .. هذا ما جرى .. نهضت فـى نومك ومشيت وفتحت الباب وأخذت المفتاح معك .. ومشيت إلى واحدة من الحجرات الخمس والعشرين فى هذا الطابق .. على كل حال هناك الكثير من الحجرات وخزانـات الثياب وكثير من قطع الأثاث الثقيلـة .. تفتيش هذا القصر يقتضـى أسبوعًا كاملا .. هل فهمت ما أريد قوله ؟ »

أجابت :

ـ « فهمت .. لكن ليس كل شىء .. »

سألته :

ـ « لكن كيف تفسر يا بابـا أن نجدها على الأريكـة فى غرفة النوم التى فتشناها بعناية ؟ »

ـ « جاءتها بعدما فتشناها وكانت بعد نائمــة .: فى النهايـة استيقظت تلقائيًا ودهشت لما حدث لها أكثر مـن أى شخص آخر .. أتمنى لو كان تفسير كل الألغـاز بهذا الوضـوح والنقـاء مثل لغزك يا (كارميلا) . »

ثم ضحك وأردف :

ـ « يجب أن نكون سعداء لأن التفسير لا يشمل التخديـر أو اقتحام الأبواب أو اللصوص أو الساحرات .. لا شىء يخيـف يا كارميلا .. لن نقلق على سلامتنا »

كانت كارميلا فى ذروة حسنها .. لم يكن شىء أكثر جمـالاً منها فى تلك اللحظة .. وهنها زادها جمـالاً .. وأعتقد أن أبـى كان يقارن فى ذهنه سرًا بين جمالها وجمالى ..

على كل حال انتهت المحنة وعادت السعادة لنا ..

* * *

الفصل التاسع

الطبيب

لما كانت كارميلا ترفض وجود خادمة معها فى الغرفة ، رتب أبى أن ينام خادم خارج بابها حتى لا تحاول مرة أخرى أن تجول من دون أن يُقبض عليها على باب غرفتها .

مرت الليلة هادئة ، وفى الصباح جاء الطبيب ليراني ، ولم يكن أبى قد أخبرنى بهذا ..

اصطحبتنى المدام إلى المكتبة وهناك كان الطبيب صغير الحجم بشعره الأبيض وعويناته - والذى تكلمت عنه من قبل - ينتظرنى .

حكيت له قصتى فبدت الخطورة والجدية على ملامحه .. كنا واقفين فى إحدى النوافذ يواجه أحدنا الآخر .. حينما انتهيت أراح كتفيـه على الجـدار وثبت عينيه على باهتمام فيه لمسة رعب ..

بعد دقيقة تفكير طلب من المربية أن تقوده ليرى أبى .

جاء أبى على الفور ، وقال باسمًا :

- « أتوقع أن تقول لى يا دكتور إننى أحمقُ عجوز لأننى جلبتك هنا .. أتمنى هذا »

لكن ابتسامته تبخرت إذ أومأ له الطبيب بوجه لا هزل فيه .

انفرد بالطبيب وتكلما بعض الوقت .. بدا لى أنه موضوع جاد مثير للجدل ..

كانت الغرفة واسعة وقد وقفت أنا والمدام بعيدًا نحترق من الفضول .. لم نميز كلمة واحدة لأن الصوت كان خفيضًا ..

بعد دقيقة نظر أبى للغرفة . كان شاحبًا غارقًا فى التفكير .. وأعتقد أنه كان مذعورًا .

قال لى :

ـ « لورا يا عزيزتى .. تعالى هنا .. مدام .. نحن لن نزعجك فى الفترة التالية »

دنوت منهما خائفة .. كنت واهنة لكنى بالتأكيد لم أشعر أنى مريضة ..

قال أبى وهو ينظر للطبيب :

ـ « هذا غريب فعلاً .. (لورا) .. تعالى هنا يا عزيزتى وكلمى د. (سبيلبرج) .. واستعيدى ذكرياتك .. قلت إن هناك إبرتين اخترقتا جلدك قرب العنق فى الليلة التى زارك فيها أول كابوس .. هل هناك ندوب باقية ؟ »

أجبت :

ـ « بتاتًا .. »

ـ « هلا أشرت لنا إلى مكان دخول الإبرتين ؟ »

أجبت :

ـ « تحت حلقى بقليل .. هنا »

قال الطبيب :

ـ « لن تمانعى فى أن يكشف لنـا بابـا هذا الثوب لنرى موضع الإصابة »

أنزل بابا الثوب بوصتين تحت عنقى ثم صاح :

ـ « فليباركنى الرب ! إن الأمر كذلك فعلاً ! »

قال الطبيب فى لهجة انتصار كئيب :

ـ « تراه بعينيك الآن ! »

بدأ الذعر ينتابنى :

ـ « عم تتكلمان ؟ »

ـ « لا شىء يا عزيزتى ماعدا بقعة زرقاء فى حجم طرف إصبعك .. والآن .. »

ثم استدار لأبى يسأله :

ـ « السؤال المهم هو : ماذا علينا عمله ؟ »

ثم نادى المدام وقال لها :

ـ « أرى أن صديقتى الصغيرة أبعد ما تكون عن الصحة .. لن يسبب هذا خطرًا لكن لابد من اتباع خطوات معينة سوف أشرحها لك .. وفى الوقت ذاته لا تسمحى (لمس) لورا بأن تكون وحيدة لحظة واحدة .. هذا هو أهم توجيه لك .. »

وعدته المدام فى حماسة ولهفة .

هنا سأله أبى :

ـ « يجب أن أعرف رأيك بصدد مريضة أخرى تشبه أعراضها أعراض ابنتى بشكل أخف بكثير ، لكنها ذات النوع .. إنها تلك الشابة ضيفتنا .. لكنك تقول إنك ستمر من هنا مساء فمن الأفضل أن تتناول عشاءك معنا .. ولسوف تراها فهى لا تصحو من النوم إلا عصرًا .. »

قال الطبيب :

ـ « شكرًا .. سآتى هنا فى السابعة مساء .. »

هكذا غادر أبى مع الطبيب ، ورأيتهمـا يمشيان فى الطريق وعبر الخندق .. ومـن الواضح أنهما غارقان فى محادثة مهمـة جدًا ..

لم يعد الطبيب .. رأيته يمتطى حصانه راحـلاً غربًا نحو الغابة ..

فى الوقت ذاته رأيت ساعى البريد القادم من (درينفلد) ينزل حمولته ويناول أبى الخطابات .

كنت منهمكة مع المـدام نحـاول تخمين مـا لمّح لـه أبى والطبيب ..

كما حكت لى المدام فيما بعد ، فإنها شعرت كأن الطبيب كان يخشى أن أصاب بنوبة مفاجئة .. ولو لم يكن هناك من يراقبنى فلربما هلكت أو آذيت نفسى بشدة .

لم يدهشنى هذا وتصورت رحمة بأعصابى أن المقصود من هذا منعى من إرهاق نفسى بالرياضة أو التهام فاكهة غير ناضجة أو عمل أى من الخمسين شيئًا التى يفترض ألا يعملها الشباب .

بعد نصف ساعة جاء أبى وهو يمسك بخطاب وقال :

ـ « هذا الخطاب تأخر .. إنه من جنرال (شبيلزدورف) .. كان المفترض أن يكون هنا أمس لكنه قد يصل اليوم أو غدًا .. »

وضع الخطاب فى يدى ، لكنه لم يبد مسرورًا كعادته عندما يأتى ضيف يحبه بشدة مثل الجنرال . بالعكس بدا كأنه يتمنى أن يغرق الرجل فى البحر الأحمر .. أعتقد أن شيئًا كان فى ذهنه لا يريد أن يفصح عنه ..

وضعت يدى على يده ونظرت فى عينيه وقلت :

ـ « بابا .. هلا شرحت لى ؟ »

(ملس) على شعرى وقال :

ـ « ربما .. »

ـ « هل الطبيب يعتقد أنى مريضة جدًا؟ »

ـ « كلا .. يعتقد أنه لو اتخذنا خطوات صحيحة فلسوف تستعيدين صحتك .. خلال يوم أو اثنين »

ثم أردف بجفاف :

ـ « تمنيت لو أن صديقنا الطبيب الجنرال اختار وقتًا آخر .. كنت أتمنى أن تكونى بخير عندما تستقبلينه »

ـ « ماذا يقول الطبيب عنى بالضبط ؟ »

ـ « لا شىء .. عليك ألا ترهقينى بالأسئلة .. »

قالها فى ضيق لم أره عليه فى حياتى .. فلما رأى أننى جرحت ، قبلنى وأضاف :

ـ « سوف تعرفين كل شىء خلال يومين .. هذا كل شىء .. فى الآن ذاته لا ترهقى نفسك بالأسئلة »

وغادر الغرفة . لكنه عاد قبل أن أغرق فى الحيرة حول معنى هذا كله .. لقد عاد ليخبرنى أنه ذاهب إلى قلعة (كارنشتاين) وأنه طلب أن يعدوا العربة للرحيل فى الثانية عشرة ..

علىّ أنا والمدام أن نرافقه .. يريد أن يقابل القس المسئول فى هذه المنطقة الجميلة .. عندما تصحو كارميللا سوف تتبعنا مع المدموازيل ومعهما ما يصلح لنزهة خلوية .. حيث نتناول طعامنا فى خرائب القلعة .

فى الثانية عشرة كنت مستعدة .. فما أن انطلقنا فى رحلتنا حتى انحرفنا يمينًا لنقطع الجسر القوطى .. ثم غربًا حتى نبلغ القرية المهجورة وأطلال قلعة (كارنشتاين) .

لم يكن هناك أجمل من هذا المنظر .. لكن تعرجات الطريق كثيرًا ما تخرجك عن مسارك ، فيلتف حول منخفضات ومناظر شتى رائعة الجمال ..

فى نقطة من تلك النقاط فوجئنا بصديقنا القديم الجنرال ..

كان قادمًا نحونا على صهوة جواد ، وكانت حقائب سفره تتبعه فى عربة مستأجرة ..

ترجل الجنرال وتبادلنا التحيات ، وبعد إقناع بسيط قبل أن يأخذ المقعد الخالى فى عربتنا .. وعاد حصانه مع خادمه إلى القلعة .

* * *

الفصل العاشر

محروم

لم نكن قد رأيناه منذ عشرة أشهر لكن هذه الفترة غيرت شكله كأنها أعوام .. نحل كثيرًا وبدا أن الكآبة والقلق قد حلا محل الهدوء الذى كان يميز ملامحه .

عيناه الزرقاوان الغامقتان المخترقتان صارتا تلمعان ببريق حازم تحت حاجبيه الكثين .

لم يكن هذا هو التغير الذى يسببه الحزن فقط .. يبدو أن لبعض العواطف الغاضبة دورًا فى هذا ..

بدأ يتكلم بطريقته العسكرية المباشرة عن الثكل الذى يعانيه بعد وفاة طفلته .. فجأة انفجر فى نوبة غضب عن (الفنون الشيطانية) التى سقطت ضحية لها . وكان غاضبًا أكثر منه حزينًا وهو يتساءل عن سبب صبر السماء على هذه الممارسات الشريرة الشهوانية .

كان أبى قد فهم على الفور أن شيئًا غريبًا جدًا قد حدث ، فسأله - إن لم يؤلمه هذا - أن يوضح كلامه أكثر .. يوضح سبب هذه اللغة العنيفة التى يستعملها ..

قال الجنرال :

- « يمكن أن أحكى لكنك لن تصدقنى .. »

- « ولم لا ؟ »

قال مشاكسًا :

- « لأنك لا تصدق إلا ما يتفق مـع معتقداتـك الأولـى .. كنت مثلك فى البداية ثم تعلمت »

قال أبى :

- « جربنى .. أنا لست متصلب الرأى كما تظن .. أنا أعرف أنـك لا تعتقد فـى شـىء إلا إذا وجدت البرهـان عليـه ؛ لـذا استنتاجاتك دقيقة جدًا . »

هنا نظر أبى إلى الجنرال وقد بدا أنه مرتـاب بشكل واضـح فى قواه العقلية . لحسن الحظ لم يلحظ الجنرال هذا .. كـان ينظر فى كآبة إلى حدود الغابة التى تمتد أمامنا .

قال :

- « هل أنت ذاهب إلى خرائب (كارنشتاين) ؟ هذه مصادفة ممتازة .. كنت سأطلب منك أن تأخذنى هنـاك لنفحصها .. ثمـة

شيء أرغب في رؤيته .. كنيسة قديمة .. أليس كذلك ؟ بها مقابر هذه الأسرة المنقرضة ؟ »

قال أبي :

ـ « هذا مثير .. هل تنوي المطالبة بهذا العقار ؟ »

قال أبي هذا في مرح .. لكن الجنرال لم يضحك ولم يبد أية علامة على أنه سمع دعابـة صديق .. على العكس بدا صارمًا جدًا وربما أقرب إلى التوحش .. كأن هناك شيئًا يستفزه ..

قال :

ـ « أنا أنوي بعون الله أن أحقق عملاً خيرًا هنا .. عملاً سيريح أرضنـا من وحوش ، ويجعل الأبريـاء ينامون في أسرتهم فلا يخشون الاعتداء .. ثمة أشياء غريبة سأخبرك بها يا صاحبي وكانت غريبة بالنسبة لي منذ بضعة أشهر »

نظر له أبي ليس في عدم تصديق بل في اهتمام وخوف ..

قال :

ـ « بيت (كارنشتاين) انقرض منذ زمن طويل .. مائة عام على الأقل .. زوجتي كانت منهم لكن الاسم واللقب انقرضا ..

القلعة هدمت والقرية هجرت .. مرت أعوام منذ خـرج آخر دخان من مدخنة هناك .. سأحكى لك فى حينه لكننـا الآن سنلتزم بترتيب الأحداث ..

- « أنت رأيت ابنتى .. طفلتى .. ما من مخلوق فى جمالهـا ونضارتها »

قال أبى :

- « نعم .. المسكينة .. حين رأيتها آخر مرة كانت لطيفة جدًا .. ولقد حزنت فوق التصديـق عندمـا عرفـت بخبر الضربة التى وجهت لك »

احتشدت الدموع فى عينى الجندى العجوز ، وقال :

- « نحن صديقان قيمان وأنا أعرف أنك ستحزن من أجلى .. أنت تعرف أنها ليست ابنتى بالضبط لأننى لم أرزق بأطفال لكنـى وصىّ عليها .. إن ما بقى لـى من أعوام علـى الأرض لن يطول ، لكنى بعون الله أرغب فى إسداء خدمة للجنس البشرى قبل أن أموت .. أريد أن أصب انتقامى على من سـلبوا الفتاة حياتها فى ربيع شبابها .. »

قال أبى :

ـ « أنت وعدت بقص كل شىء .. أريد أن أسمع .. »

كنا قد بلغنا نقطة طريق (درونشتال) الذى جاء منه الجنرال ، والذى يتفرع من الطريق الذى نقصد به (كارنشتاين) .

سأل الجنرال فى قلق :

ـ « كم نبعد عن الخرائب ؟ »

قال أبى :

ـ « نحو نصف فرسخ . والآن دعنا نسمع القصة التى برعت فى تشويقنا لسماعها »

★ ★ ★

الفصل الحادى عشر

القصـــة

بعد لحظات من الصمت راح الجنرال يرتب أفكاره ، وبدأ يحكى واحدة من أغرب ما سمعت من قصص .

ـ « طفلتى العزيزة كانت تتطلع بشوق لزيارتكم .. وفى الوقت ذاته تلقينا دعوة من صديقى القديم الكونت (كارلسفلد) .. وقلعته على بعد ستة فراسخ من قلعة (كارنشتاين) .. كانت ضيافته لنا كضيافة الملوك .. كأن عنده مصباح (علاء الدين) ينفذ له ما يشتهى من أحلام ..

« الليلة التى بدأ حزنى منها هى ليلة حفل تنكرى رائع .. كانت الأرض مفتوحة والأشجار مزينة بالمصابيح .. مع عرض ألعاب نارية لم تره باريس نفسها .. والموسيقا ! تعرفان أن الموسيقا ضعفى ! موسيقا تستلب الوعى ! أعظم آلات موسيقية وأعظم عازفين يمكن أن تجدهم فى أوروبا ..

شعرت وأنا أسمع وأنظر كأننى أحمل حملاً إلى رومانسية شبابى .

عندما انتهت الألعاب النارية ، وبدأ الحفل . عدنا للغرف التى فتحوها للراقصين ..

كان حشدًا أرستقراطيًا جدًا .. وكنت أنا النكرة الوحيدة هناك ..

وكانت طفلتى العزيزة فى غاية الجمال .. لم تكن تضع قناعًا ، وقد أضفى حماسها وسرورها فتنة على ملامحها ..

كانت هناك شابة يبدو أنها ذات شأن متأنقة وتضع قناعًا ، وتراقب طفلتى باهتمام فائق ..

لقد قابلتها هذه الأمسية فى أكثر من مكان .. وكانت ترافقها سيدة مقنعة بدورها ، فاخرة الثياب .. وقد بدا أنها عظيمة الشأن ترافق الفتاة كوصيفة .

لو أن الفتاة الصغيرة لم ترتد قناعًا لعرفت بيقين أكبر إن كانت تراقب طفلتى أم لا .. الآن أنا متأكد من أنها كانت تراقبها .

دخلنا صالونًا وكانت طفلتى المسكينة ترقص وتستريح قليلاً على مقعد قرب الباب ، فدنت السيدتان اللتان ذكرتهما ، ووقفت واحدة جوارى بينما جذبت الأخرى مقعدًا وجلست جوار طفلتى .

مستفيدة من قناعها استدارت السيدة نحوى ونادتنى باسمى وبطريقة صديق قديم .. ثم بدأت محادثة معى أثارت فضولى بشدة .

تحدثت عن مواقف عدة قابلتنى فيها . فى المحكمة أو منازل شهيرة .. وتذكرت أحداثًا معينة نسيتها، لكنّها كانت تنتظر فى عقلى معلقة بانتظار لمستها لتصحو ..

صرت أكثر فضولاً لمعرفة من هى .. لكنها تملصت من محاولاتى ببراعة وبشكل لبق .. إنها تعرف أمورًا كثيرة فى حياتى بشكل لا يمكن تفسيره .. وكانت هى تجد لذة غير عادية فى إذكاء فضولى .. فى رؤيتى أتخبط بين حدس وآخر .

فى الوقت ذاته كانت الفتاة الشابة التى تطلق عليها أمها اسم (ميلاركا) ـ وهو اسم عجيب ـ قد استطاعت بسهولة وبراعة أن تبدأ حديثًا مع طفلتى ..

قالت مقدمة نفسها إن أمها معرفة قديمة جدًا لى .. كانت تتكلم بتلك الجرأة التى يمنحها للناس القناع .. كلمتها كصديقة وأطرت ثوبها وأطرت جمالها ..

راحت تسليها بدعابات عن الناس فى قاعة الرقص .. كانت نكية جدًا مفعمة بالحيوية متى أرادت .. هكذا صارتا صديقتين بعد قليل وأنزلت الفتاة قناعها مظهرة جمالاً ملحوظًا ..

لم أر وجهها من قبل وكذا طفلتى .. كـانت ملامحهـا جميلة فعلاً حتى أنه كان من العسير ألا تشعر بالانجذاب ..

بدا لى أن طفلتى والغريبة قد وقعتا فـى حب بعضهمـا .. ومن النظرة الأولى ..

بدأت أوجه بعض أسئلة للسيدة .. قلت لها :

ـ « أنت حيرتنى فهل هذا غير كاف ؟ الآن هل يمكـن أن نتعادل وأن تسمحى لى بأن أنزع قناعك ؟ »

أجابت :

ـ « هل يوجد طلب أقل تعقلاً من هذا ؟ تطلب من سـيدة أن تتنازل عن مزية تمنحها التفوق ؟! .. ثم من قـال إنـك ستتعرفنى ؟ الأعوام تغير الكثير .. »

ضحكت ضحكة فيها شجن ، وقلت :

ـ « كما ترين . »

ـ « بل كما يقول لنا الفلاسفة .. وكيف تضمن أن مـرأى وجهى سيساعدك ؟ »

ـ « يجب أن أجرب .. لكن لا جدوى مـن التظـاهر بأنك امرأة عجوز .. معالم جسدك تخونك »

- « برغم هذا هى أعوام منذ رأيتنى ورأيتك .. (ميلاركا) هناك هى ابنتـــى .. لا يمكن إذن أن أكون صغيرة السن .. حتـى فـى رأى مـن علمهم الزمـن التســامح .. لا أحـب أن تقارن وجهى بما تذكـره عنـى . ثم إنـك لا تضـع قناعًا لـذا ليس لديك ما تبادل به .. »

- « أطالب عطفك أن تنزعى القناع .. »

- « وأنا أضم عطفك لعطفى كى يبقى القناع حيث هو »

- « على الأقل هل أنت فرنسية أم ألمانية ؟ فأنت تجيدين اللغتين »

- « لن أصرح بهذا .. أعتقد أنها طريقة تدفعنى بها للكلام .. »

لم أعرف وقتها أن هذه المحـادثة معدة سلفًا .. وأنها غالبًا تدربت عليها كثيرًا ..

هنا قاطعها سيد مهـذب يلبس الأسود .. فقط لا يعيبـه إلا أن وجهه هو الشحوب بعينه .. شحوب لم أره إلا فى الموتى ..

لم يبتسم لكنه انحنى فى رقة وتهذيب ، وقال :

- « هلا سمحت لى سيدتى الكونتيسة بأن أخبرها كلمـات قليلة سوف تهمها بشدة ؟ »

نظرت له المرأة ثم طلبت منى أن أحفظ لها مقعدها ونهضت مع الرجل . كانت تتكلم بجدية تامة مع ذلك الرجل ثم توارت فى الزحام ولم أعد أعرف أين هى .

ظللت أحاول تخمين شخصية السيدة .. وفكرت فى أن أنضم للمناقشة بين طفلتـى والفتـاة .. هكذا سوف أظفر باسمها وعنوانها وعقاراتها ..

لكنها عادت قبل أن يحدث هذا ، وقال الخدم إن عربتها جاءت .

* * *

الفصل الثانى عشر

التماس

قالت لى السيدة إن ابنتها تتعافى من حادث ركوب حصان أثر على أعصابها بشدة .. السيدة ترغب فى ألا تفارق ابنتها لكنها مرتبطة برحلة شديدة الخطر تتعلق بالموت والحياة ..

قالت لى إننى سأعرف التفاصيل فيما بعد لكن ليس الآن .. كل ما طلبته منى كان أن أعنى بابنتها .. لقد أحسنت اللعب وألقت نفسها بالكامل فى بحر فروسيتى ..

فى الوقت ذاته وبإحدى تصاريف القدر ، جاءت طفلتى جوارى وبصوت خفيض اقترحت أن أدعو صاحبتها (ميلاركا) لزيارتنا .. وخطر لى أن هذا سيروق لها بالتأكيد ..

فى ظروف أخرى كنت سأطلب منها أن تنتظر إلى أن نعرف على الأقل من هم .. لكن لم يكن عندى وقت للتفكير ..

لقد قهرنى جمال الفتاة الشابة الذى لا يقاوم ، مع نيران الأصل الكريم .. لهذا وافقت وقبلت أن أعنى بالشابة التى تطلق عليها أمها اسم (ميلاركا) ..

أومأت السيدة لابنتها ثم راحت تحكى لها كيف أن ظروفًا قهرية تضطرها للرحيل وأننى سأعنى بها فى هذه الفترة ..

ثم همست بكلمات لابنتها وقبلتها مرتين ، ثم رحلت يصحبها السيد الشاحب ببذلته السوداء ..

قالت (ميلاركا) :

ـ « فى الغرفة المجاورة نافذة .. أريد أن أودع ماما هناك وأرسل لها قبلة .. »

هكذا وافقنا .. دخلنا الغرفة معها ووقفنا فى النافذة ، فرأينا عربة أنيقة يحيط بها السعاة والخدم والأتباع .. الرجل المتأنق يضع عباءة على كتفى السيدة ويرفع الكبود ليغطى رأسها .. وبدأت العربة تتحرك ..

قلت لنفسى :

ـ « لقد رحلت ! »

وللمرة الأولى منذ وافقت بدأت أفهم حماقة ما فعلت ..

قالت الشابة فى حزن :

ـ « لم تنظر لفوق قط ! »

قلت :

ـ « لقد نزعت قناعها لذا لم ترد أن تكشف وجهها .. وما كان بوسعها أن تعرف أنك فى النافذة »

تنهدت ونظرت لى ..

كان جمالها مذهلاً لدرجة أننى أسفت لأننى ندمت على كرم الضيافة .. وصممت على أن أعوضها عن الجفاء الواضح الذى استقبلتها به فى البداية ..

طلبت الفتاتان منى أن نعود إلى حيث كانت الفرقة الموسيقية يجرى استبدالها ..

صارت صلة ميلاركا بنا وطيدة .. وسلّتنا بكلامها المليء بالحيوية وقصصها عن القوم العظام الذين رأيناهم فى الشرفة .. صرت أميل لها أكثر فأكثر كل دقيقة .. كانت ثرثرتها مسلية فعلاً .. أنا الذى ابتعدت عن العالم فترة لا بأس بها ..

وأدركت أنها ستمنح الحياة لتلك الأمسيات الوحيدة الكئيبة فى دارنا ..

لم ينته الحفل حتى صارت شمس الصباح فى الأفق .. كان الدوق الكبير يحب أن يرقص حتى هـذه اللحظـة ، حتـى لا يستطيع المخلصون له أن يرحلوا أو يخلدوا للفراش ..

كنا فى صالون مزدحم عندمـا سألتنى طفلتـى عن مكان (ميلاركا) ..

كنت أحسبها معها وتصورت هى أنها معى ..

من الواضح أننا فقدناها ..

فشلت كل محـاولاتى للعثور عليها .. وخشيت أن ترتبك فى محاولة البحث عنا فتفترض أننا أناس آخرون ..

الآن اتضـح لـى بوضـوح مدى الحماقـة التـى ارتكبتهـا عندما استضفت هذه الآنسة .. بينما لا أعرف إلا اسمها .

وكنت مقيدًا بوعود لا أعرف سبب الإصرار عليها لكنها تحتم ألا أسأل .. كما كان من السخف أن أسأل الناس عن الآنسة التى هى ابنة الكونتيسة التى رحلت منذ وقت قصير ..

جاء الصباح ، عندما قررت أن أتخلى عن البحث .. وحتى الثانية من اليوم الثانى لم نعرف شيئًا عنها ..

فى هذا الوقت دق خادم علـى بـاب ابنـة أختـى ليقول إن سيدة صغيرة قلقة جدًا طلبت منـه بجديـة ، أن يخبرها عن

مكان الجنرال (شبيلزدورف) وابنته الشابة ، الذى تركتها أمها فى عنايته ..

لم يكن هنـاك شـك .. صديقتنا الشابة قـد ظهـرت ، وليتنا فقدناها فعلاً !

حكت لطفلتـى قصـة تفسر بهـا كيـف فشلت فـى العثـور علينا ..

فى ساعة متأخرة ـ كما تقول ـ دخلت غرفة نـوم مدبـرة المنزل يائسة من العثور علينا ..

هناك نامت نومًا طويلاً .. طويلاً لكنه جعلها تستعيد قواها من جديد بعد إرهاق الحفل ..

فى هذا اليوم جاءت (ميلاركا) البيت معنا ..

وكنـت مسرورًا لأنـى ظفـرت برفيـق رائـع كهذا لفتــاتى الصغيرة ..

* * *

الفصل الثالث عشر

الحطّـــاب

لم يخل الأمر من عيوب .. ففى المقام الأول كانت (ميلاركا) تشكو من كسل شديد .. الوهن الذى تلا مرضها الأخير .. ولم تخرج من غرفتها قط قبل العصر ..

بالإضافة لهذا كانت دومًا تغلق غرفتها من الداخل ، وتدس المفتاح فى القفل .. ولا شك فى أنها لم تكن فى غرفتها أحيانًا فى الصباح الباكر .

أحيانًا فى الضوء الرمادى الشاحب للصباح كنا نراها تمشى بين الأشجار متجهة للشرق ، وتبدو كأنها غير واعية .

جعلنى هذا أعتقد أنها تمشى فى نومها .. لكن هذا لم يفسر لغز مغادرتها لغرفتها تاركة المفتاح فى القفل من الداخل ..

وسط هذه الحيرة انتابنى القلق بصدد أمر عاجل خطير ..

لقد بدأت طفلتى تفقد جمالها وصحتها .. وكان هذا بشكل غامض مخيف حتى أن الذعر سيطر علىّ ..

فى البداية كانت تزورها أحلام مرعبة ، ثم كما تخيلت بدأت تزورها أطياف أو أشباح تمثل (ميلاركـا) أحيانًا وأحيانًا تبدو كوحوش .. وهذه الوحوش تجوب غرفة النوم حول الفراش ..

بعد هذا تـأتى الأحاسيس .. أحاسيس غير سارة لكنها ذات طابع خاص ..

يشبه الأمر كما قالت سريان تيار ثلجى فى صدرها ..

فى مرات أخرى كـانت تشعر بإبرتين تخترقان صدرها تحت العنق بقليل .. فيدب فيه ألم حاد ..

أحيانًا كانت تشعر بالاختناق ثم تغيب عن الوعى ..

★ ★ ★

كنت أسمع كل كلمة يقولها الجنرال العجوز على حدة ، لأننا فى هذه اللحظة كنا نمشى على الكلأ الذى يمتدُ لجانبى الطريق .. وأنت تدنو من القرية التـى لم تـر دخان مدخنـة منذ نصف قرن ..

طبعًا يمكنك تخمين مدى الغرابة التى شعرت بها وأنا أسمع الأعراض التى تمر بى بالضـبط .. بل إنه ذكر عادات كنت حتى هذه اللحظة أحسبها خاصة بضيفتنا (كارميلا) ..

انفتحت ثغرة فى الأشجار ، فرأينا أننـا تحـت مداخـن وأسقف القرية المخربـة .. وبقايا القلعة المتداعيـة حولها أشجار عملاقة ..

ـ « وهنا كان يقيم آل (كارنشتاين) ! »

قالها الجنرال وهـو يطل من نافذة كبـرى على القريـة .. رأى الغابة الممتدة بحدودها المتعرجة ..

واصل الكلام :

ـ « كانت أسرة كريهة .. وهنا كانت تكتب يوميات ملطخـة بالدم .. لكن من الغريب بعد الموت أن يواصلوا تلويث الجنس البشرى بالشهوات الفظيعة .. هنا كانت كنيستهم .. تحت .. »

وأشار إلى جدران عظيمة لبناية قوطيـة ، المشـهد الذى تراه وسط الأشجار الكثيفة جزئيًا ..

وأضاف :

ـ « أسمع فأس حطاب .. إنه منهمك فى قطع الأشجار .. أعتقد أنه يمكن أن يمنحنا ما نريد من معلومات .. يخبرنا بقبر (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين .. هؤلاء الفلاحون يحافظون على تقاليد الأسر العظيمة .. بينمـا أسرار هـؤلاء تفنى بين الأغنياء وتفنى الأسرة نفسها .. »

قال أبى :

ـ « لدينا صورة لـ (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين فى بيتى .. هل تريد أن تراها ؟ »

ـ « فى وقت آخر يا صديقى .. أنا أؤمن أنى رأيتها فعلاً .. وما دفعنى للقدوم لك هو رغبتى فى استكشاف الكنيسة التى نحن ذاهبون لها .. »

فى دهشة قال أبى :

ـ « ماذا ؟ ترى الكونتيسة (ميركالا) ؟ لقد ماتت منذ قرن ! »

قال الجنرال :

ـ « ليست ميتة للدرجة التى تعتقدها .. »

أجاب أبى وهو ينظر له وبذات درجة الشك السابقة :

ـ « أنت تحيرنى بشدة »

كان كلام الجنرال مليئًا بالحقـد والغيظ ، لكنـه كان خاليًـا من الهلوسة أو الخفة ..

مررنا تحت أقواس الكنيسة القوطية وقال الجنرال :

ـ « بقى أمامى شىء واحـد يهمنى فى الأيام الباقية لـى على الأرض .. أن أنزل بهـا الانتقـام الذى أحمـد الله علـى أننى قادر عليه »

فى دهشة سأله أبى :

ـ « عن أى انتقام تتكلم ؟ »

أجاب وقد احمر وجهه فى وحشية ورفـع قبضتـه فـى الهواء كأنه يمسك بمقبض فأس :

ـ « أن نقطع رأس الوحش !! »

صاح أبى فى ذهول :

ـ « ماذا ؟ »

ـ « نطير رأسها ! »

ـ « نطيره ؟ »

ـ « نعم .. بفأس قصيرة أو رفش أو أى شىء يمكـن أن يمزق حلقها القاتل .. سوف تسمع »

ثم راح يرتجف انفعالاً ، وقال :

ـ « هذه العارضة الخشبية تصلـح كمقعد .. إن ابنتك مرهقة فدعها تجلس ، وأنا سأنهى قصتى المخيفة بعد بضع جمل .. »

كان قالب الخشب الملقى وسط العشب الذى يغطى إفريز الكنيسة يشكل مقعدًا سرنى أن أجلس عليه .. فى الوقت ذاته نادى الجنرال الحطاب الذى كان يرفع بعض الأغصان المستندة إلى الجدران القديمة .. وقد وقف الرجل قوى البنيان أمامنا والفأس فى يده ..

لم يستطع أن يخبرنا بشىء عن هذه الآثار .. لكنه قال إن هناك حارسًا قديمًا للغابة يقيم حاليًا فى بيت القس على بعد ميلين ، وبوسعه أن يخبرنا بكل أثر من آثار آل (كارنشتاين) ..

قال إنه سيجلبه لنا خلال نصف ساعة لو أننا أقرضناه جوادًا من جيادنا ..

سأل أبى الرجل :

ـ « هل أنت مسئول عن هذه الغابة منذ زمن ؟ »

قال الرجل بلهجته العامية :

ـ « أنا حطاب هنا طيلة حياتى .. وكذلك أبى من قبلى .. وهكذا لعدة أجيال .. بوسعى أن أريكم البيت الذى كان الأجداد يعيشون فيه فى القرية »

سأله الجنرال :

ـ « لماذا صارت القرية مهجورة ؟؟ »

ـ « لقد هاجمتها الأشـباح العائدة من القبور يا سيدى .. كـان النـاس يلاحقون أكثر هذه الأشباح إلى قبورهـا ثـم يتخلصون منها بالسبل المعتـادة .. قطـع الرأس .. الوتد .. الحرق ، لكن قرويين كثيرين ماتوا أولاً »

وأردف :

ـ « بعد هذا كانت الكثير من القبور تفتح .. ويحرم مصاصو الدماء من وجودهم . لكن القرية لم تبرأ تمامًا .. سمع أحد السادة من (مورفيا) وكان مسافرًا من هنـا هذه الأمور ، وكان بارعًا فيها كأكثر الناس فى وطنه ؛ لـذا عرض علينا أن يخلص القرية من معذبيها ..

« فعل ذلك على النحو التالى : اختار ليلة ساطعة القمر وتسلق برج الكنيسة بعد غروب الشمس مباشرة .. هكذا صار بوسعه أن يرى فناء الكنيسة تحته كما نراه نحن من هذه النافذة .. ظل يراقب حتى رأى مصاص الدماء يخرج من قبره ويضع جـواره

قطعة الكفن التى كـان ملفوفًا فيهـا .. ثـم يتجـه إلـى القريـة ليهاجم سكانها ..

« رأى الغريب هذا كلـه فنزل مـن بـرج الكنيسـة وأخـذ قطعة الكفن وعاد بها إلى قمة البرج ..

« حينما عاد مصاص الدماء من جولته افتقد قطعة القماش . وصرخ فى توحش فى المورافى الذى رآه على قمة البرج . فتحداه هذا الأخير كى يصعد له ويأخذ الكفن ..

قبل مصاص الدماء التحدى ، وبدأ يتسلق برج الكنيسة .. فلما وصل إلى الموارفى أخـرج هـذا سيفه وشطر جمجمـة مصاص الدماء إلى نصفيـن ، فسـقط هـذا الأخـير علـى فنـاء الكنيسة .. وهكذا نزل الموارفى وأخذ الجثـة لأهـالى القريـة الذين غرسوا وتدًا فى قلبها وأحرقوها .. »

« هذا النبيل الموارفى حصـل على موافقـة رأس العائلـة على أن يزيل قبر (ميركالا) كونتيسة كارنشتاين . وقد فعل هذا حتى أن مكان القبر قد نسى تمامًا .. »

سأله الجنرال فى لهفة :

ـ « هلا أشرت إلى موضعه ؟ »

فهز رجل الغابات رأسه وابتسم ، وقال :

ـ « ما من كائن حى يستطيع إخبارك اليوم .. يقولون كذلك إن جسدها انتزع من هنا لكن أحدًا لا يعرف هذا بدقة .. »

كان وقت طويل قد مر .. لذا انصرف الرجل ، بينما بقينـا نسمع باقى قصة الجنرال الغريبة .

★ ★ ★

الفصل الرابع عشر

اللقـــاء

واصل الجنرال :

- بدأت طفلتى تتدهـور .. فشل الطبيب الذى فحصها فى أن يجد سببًا معقولاً لمرضها ..

رأى ذعرى فاقترح عمل (كونسولتو) .. هكذا استدعينا طبيبًا نابهًا من (جراتس) .. مرت عدة أيام قبل أن يصل .. كان طبيبًا بارعًا ويتمتع بالثقافة ..

فحص الرجلان طفلتى المسكينة .. ثم انسحبا إلى المكتب للمناقشة .. كنت فى الغرفة الملاصقة أنتظر سماع استدعائى ، فسمعت صوتيهما يرتفعان بشكل حاد أكثر مما تقتضيه مناقشـة فلسفية ..

عندما قرعت الباب ودخلت ، وجدت الطبيب العجوز من (جراتس) مصرًا على رأيـه ، بينمـا الشاب زميلـه ينتقد النظرية بسخرية لا تخفى ، تصاحبها ضحكات ثقيلة .

لكن هذه المشاحنة انتهت بمجرد دخولى ..

قال الطبيب الأول :

ـ « زميلى المثقف يرى أنك بحاجة إلى مشعوذ لا طبيب »

قال الطبيب العجوز من (جراتس) وهو غير راض :

ـ « سامحنى .. سوف أجرب وجهة نظرى بصدد الحالـة فى وقت آخر على طريقتى .. أخشى أن مهارتى وعلمى لن ينفعانى .. لكن قبل أن أرحل سـوف أمنـح نفسـى شرف أن أقترح شيئًا عليك »

وبدا كأنه يفكر ، ثم جلس إلى منضدة وراح يكتب ..

لقد تركنى هذا الكونسلتو حيث كنت .. هكذا خرجت فى الحقول شارد الذهن ..

إلا أنـه بعد عشر دقـائق لحـق بـى ذلـك الطبيـب مـن (جراتس) .. اعتذر لى لأنه اقتفى أثرى ، لكنه لا يستطيع أن يرحل بضمير سليم ما لم يتبادل معى بضع كلمات ..

قال إنه لا يخطئ .. ما من مرض طبيعى يسبب ذات العلامات .. وإن الموت قد اقترب جدًا . لكن يبقى من حياة الفتاة يوم أو يومان .. لو توقفت النوبات القاتلة فلربما أمكن للفتاة استعادة قواها .. لكن هجمة أخرى سوف تطفئ آخر وهج حياة .. وهذا الوهج على وشك النفاد على كل حال .

سألته :

ـ « ما نوعية النوبات التى تتكلم عنها ؟ »

ـ « شرحت كل شىء فى المذكرة التى أضعها بين يديك .. بشرط أن تستدعى أقرب رجل دين وتفتح خطابى فى وجوده .. لا تطالعه إلا عندما يكون معك .. وإلا فسوف تستهتر به برغم أنها مسألة حياة أو موت .. »

وهكذا انصرف .. كان الكاهن متغيبًا لذا قررت أن أقرأ الخطاب بنفسى ..

فى وقت آخر أو حالة أخرى لربما أثار سخريتى ، لكن ما أكثر دروب الدجل والشعوذة التى يسلكها الناس كأمل

أخير عندما تقفل الطرق العادية ، وتكون حياة شخص عزيز على المحك ؟

سوف تقول إنه لا شيء أكثر سخفًا من خطاب الطبيب المثقف ..

كان يرشحه بعناية لمستشفى المجانين .

لقد قال إن المريضة تشكو من زيارات مصاص دماء !

إن الثقوب التى تصفها جوار حلقها هى فى الحقيقة موضع غرس نـابين طويليـن حـادين يميزان مصاصى الدماء .. دعك من العلامة الحمـراء المحيطة بالثقبين التى وصفها العلم بأنها شفتا الشيطان .. وكل عرض لدى الفتاة يتسق تمامًا مع قصص سابقة لحالات مشابهة ..

كنت بطبعى لا أقبل وجود هذه الأمـور .. لكنـى كنت فى أتعس حالاتى وأنا أنفذ ما فى الورقة من تعليمات ..

أخفيت نفسى فى غرفة تبديل الثياب المظلمة التى تفتح بباب على غرفـة الفتاة .. وكـانت شمعة تشـتعل فيهـا .. وظللت أنتظر حتى غابت فى النوم ..

وقفت أنتظر جوار الباب والسيف جوارى على منضـدة .. حتى تجاوزت الساعة الواحدة ..

رأيت جسمًا أسود عملاقًا غير محدد يزحف عند قدم الفراش ، ثم يتسلق حتى حنجرة الفتاة ثم بدأ ينتفخ . ويتحول إلى كتلة نابضة ..

للحظات تحولت إلى تمثال .. ثم وثبت إلى السيف ..

تقلص ذلك المخلوق الأسود نحو قدم الفراش ثم زحف عليها .. وفجأة رأيت (ميلاركا) تقف هناك صورة من الرعب والشراسة ..

ضربتها بسيفى لكنى رأيتها عند الباب ..

ضـربـت مـن جـديـد وقـد تملكنى الذعر فإذا بها قد رحلت !

تهشم سيفى إلى شظايا عندما اصطدم بالباب ..

لا أستطيع أن أصف لك ما حدث فى تلك الليلـة الرهيبـة .. لقد استيقظ البيت كله وراح يتحرك .. لقد ذهب شـبح (ميلاركـا) لكن ضحيتها كانت تتلاشى بسرعة ..

وقبل الفجر ماتت ..

* * *

كان الجنرال العجوز متوترًا ..

لم نتكلم معه وابتعد أبى قليلاً وراح يطالع الأسماء علـى شواهد القبور .. ثم دلف إلى باب كنيسة . أما الجنرال فاستند إلى جدار وراح يجفف عينيه ويتنهد بحرارة ..

سرنى أن أسمع أصوات (كارميللا) والمدام قادمة ..

ثم زالت الأصوات ..

فى هذه العزلة ، وبعد سماع هذه القصة الغريبـة ، التـى ترتبط بهؤلاء الموتى كريمى المحتد الذين اختلطت بقاياهم بالتراب واللبلاب من حولنا ، وكل حادثـة منها ترتبـط بهذه

القضية الغامضة ، وفى هذه البقعة المسكونة التى تحيط بها الخضرة الكثيفة .. بدأ الذعر يستولى على ..

غاص قلبى فى قدمى وأنا أرمق هذا المشهد ..

كانت عينا الجنرال ترمقان الأرض إذ انحنى ويداه علـى قاعدة أثر مهشم ..

وتحت مدخل بـاب تعتليـه واحدة مـن تلـك الشـياطين القـوطيـة الشــائهــة التـى يهـواهـا المـزاج القـوطـى المولـع بـالرعب والتهكم معـا .. رأيـت فـى سـرور الوجــه الجميـل لكارميللا .

كدت أنهض وأتكلـم ، ورددت علـى ابتسـامتها بهـزة رأس ..

فى هذه اللحظـة التقط العجوز بجوارى فـأس الحطـاب وهجم عليها .. فما أن رأته حتى زحف تعبير متوحش علـى وجهها ..

كان تعبيرًا لحظيًا مرعبًا وهى تثب إلى الخلف ..

وقبل أن أصرخ هوى عليها بكل قوته ، لكنها تملصت ثم أمسكت بـه بقبضتها الرقيقة من معصمـه .. حـاول أن يحرر ذراعـه للحظة لكن الفأس هوى على الأرض واختفت الفتـاة ..

ترنح إلى الجدار وشعره الأبيض منتصب والعرق يبلل وجهه كأنما كان على شفا الموت ..

حدث كل شىء فى ثوان فلا أذكر إلا المدام تقف أمامى وهى تكرر بلا انقطاع :

ـ « أين المدموازيل كارميللا ؟ »

قلت لها :

ـ « لا أعرف .. ربما هناك .. »

وأشرت إلى الباب الذى دخلته :

ـ « منذ دقيقة أو دقيقتين .. »

« لكنى أقف فى الممـر منذ دخلت المدموازيل كـارميللا ولم تخرج من عندى .. »

ثم بدأت تنادى كارميللا من خلال كل باب وكل نافذة ..

سألنا الجنرال :

ـ « هل تسمى نفسها كارميللا ؟ »

ـ « نعم .. »

ـ « وهى أيضًا ميلاركا .. وهـى ذات المـرأة التـى كـانت (ميركـالا) كونتيسة كارنشتاين .. فلتفـارقوا هـذه الأرض الملعونة بأسرع ما تستطيعون .. ابقوا فى بيت الكاهن حتى نعود لكم .. اذهبوا .. فلربما لن تروا كارميللا ثانية ! »

* * *

الفصل الخامس عشر

المحاكمة والإعدام

بينما هو يتكلم ظهر رجل من أغرب من رأيت ودخل مـن الباب الذى دخلت منه (كارميللا) وخرجت ..

كان طويلاً ضيق الصدر منحنيًا يلبس الأسود ،كان وجهـه أسمر امتلأ بأخاديد عميقة .. وعلى رأسه قبعة عريضة غريبـة المنظر .. وعلى عينيه عوينات مذهبة ، ووجهه ينظر للسماء أحيانًا وللأرض أحيانًا أخرى .

صاح الجنرال فى دهشة :

ـ « الرجل نفسه !!!! »

وبدا عليه سرور واضح ..

ـ « مـا أسعدنى بلقـائك أيهـا البـارون العزيـز !! لـم أحلـم بلقائك بهذه السرعة »

ثم جذب الرجل من ساعده وقدمه لأبى .. وأجرى التعارف بشكل رسمى ثم دخلوا فى محادثة جادة حميمة ..

تناول الغريب لفافة ورق من جيبه وفردها على سطح قبر قريب .

كان معه قلم رصاص بين أصابعه رسم به خطوطًا تخيلية بين نقطة وأخرى على الورق ، فاستنتجت أنها تصميم كروكى للبناية التى نحن فيها ..

صاحب هذا الشرح كما لى أن أسميه بقراءة من كتاب متسخ صغير تلاصقت الكتابة على صفحاته الصفر ..

مشيا عبر الممر الجانبى أمام البقعة التى كنت أقف فيها ، يثرثران ثم بدأا يقيسان المسافات بالخطوات وفى النهاية وقفا مواجهين جدارًا ..

راحا ينزعان اللبلاب الذى يحيط بـه وينتزعـان المـلاط بعصيهمـا .. يكحتـان هنـا وهنـاك .. فـى النهايـة تـأكدا مــن وجود قرص رخامى عليه كتابة محفورة ..

بمعاونة الحطاب الذى عاد رأينا نقشًا عملاقًا عليه شـعار نبالة ..

يبدو أنـه كـان جزءًا من ضريح (ميركـالا) كونتيسـة (كارنشتاين) ..

لم يكن الجنرال كما بدا لى ممن يصلون ، لكنه ضم يديـه للسماء كأنه يشكر الله ..

سمعته يقول :

ـ « غدًا سيكون القوميسير هنـا .. وسيتم تنفيذ الحكم طبقًا للقانون .. »

ثم استدار للرجل المسن ذى العوينات ذهبية الإطار وهـز كتفيه بقوة وحرارة ، وقال :

ـ « كيف لى أن أشكرك يا بارون ؟ كيف لنا جميعًا أن نشكرك ؟ سوف تنقذ هذه المنطقة من وباء ظل يطارد سكانها طيلة قرن كامل .. إن العدو المخيف والحمد لله قد تم تحديد مكانه .. »

اقتاد أبى الغريب جانبًا وتبعنا الجنرال ..

عرفت أنهم اتجهوا لمكان بعيد عن السامعين ليحكى قصتى .. ورأيتهم يحدقون فى من وقت لآخر أثناء سرد القصة ..

دنا منى أبى ولثمنى مرة ومرتين .. وإذ أخذنى من الكنيسة قال :

ـ « جاء وقت العودة .. لكن أرى أن علينا أن نضم لمجموعتنا القس الطيب الذى يعيش قريبًا من هنا ، ونقنعه بأن يلحق بنا فى القلعة »

هذه المرة نجحنا وكنت مسرورة بحق برغم أن التعب استبد بى لدى عودتنا للبيت ..

لكن سعادتى صارت رعبًا عندما لم أجد أثرًا لكارميللا .. لم أكن بعد قد فهمت معنى المشهد الذى رأيته فى الكنيسة المهدمة وقدرت أنه سر يريد أبى أن يبقيه بعيدًا عنى ..

اختفاء كارميللا جعل المشهد يبدو فى ذاكرتى أكثر شناعة ..

هذه الليلة كانت الترتيبات استثنائية .. خادمتان والمدام فى غرفتى .. بينما القس وأبى فى غرفة الثياب الملاصقة .. وكان القس قد بدأ الليلة بطقوس معينة لم أفهم فحواها أكثر مما فهمت كل هذه الإجراءات التى قصد بها حمايتى أثناء نومى .

بعد أيام فهمت هذا كله ..

يجب أن أقول إن اختفاء كارميلا صاحبه انتهاء معاناتى الليلية ..

* * *

بلا شك أنت قد سمعت تلك القصة الخرافية المفزعة التى يحكونها فى (ستيريا) و(مورفيا) و(سيلزيا) والصرب وحتى فى روسيا ..

القصة التى تتحدث عن مصاصى الدماء ..

حتى لو جمعت شهادات الناس بكل دقة وحرص ، أمام لجان لا حصر لها ، وكل لجنة منها اختير أعضاؤها على أساس الذكاء والكفاءة ، فإن من العسير أو شبه المستحيل أن تنكر وجود ما يدعى (مصاص الدماء) ..

بالنسبة لى لم أسمع أية نظريات عما رأيته وسمعته بنفسى ، باستثناء ما يؤمن به عامة الناس فى ريف البلاد .

فى اليوم التالى دارت الطقوس الرسمية فى كنيسة (كارنشتاين) ..

تم فتح قبر الكونتيسة (ميركالا) فميز أبى والجنرال ذلك الوجه الغادر رائع الجمال ...

مائة وخمسون عامًا منذ جنازتها لكن ملامحها تحمـل دفء الحياة .. عيناها مفتوحتـان ولا رائحـة عفـن تنبعـث منهـا ..

قام طبيبان بفحص الجثـة فأعلنـا الحقيقـة المروعـة أن هناك نبضًا خافتًا وكذا تنفسًا يمكن الإحساس به .. الأطراف كانت لينة والجلد كان طريًا .. بينما امتلأ التابوت الرصاصى بالدم لعمق ست بوصات وقد رقد الجسد فيه .

هكذا اكتملت كل علامات وأدلة مص الدماء ..

تم استخراج الجسد طبقًا للممارسات القديمة ، وتم إيلاج وتد فى قلب مصاص الدماء الذى أطلق صرخة حـادة تثقب الأذنين كأنها تفلت من شخص حى لحظة الاحتضار ..

ثم تم قطع الرأس فانفجر الدم من مكان القطع ..

بعد هذا تم وضـع كل شـىء على كـوم مـن الخشـب وأضرمت فيه النار .. ثم ألقى الرماد فى النهر ..

ومن ذلك الحين لم تؤرق المنطقة بزيارات مصاصى الدماء ..

لدى أبى نسخة من القرار الملكى وعليه توقيع كل من شهدوا هذه الأحداث .. وقد اعتمدت على هذه الورقة فى وصف تلك الأحداث .

★ ★ ★

الفصل السادس عشر

الخلاصـــة

أنتم تعتقدون أنى أكتب هـذا الكلام برباطة جأش لكنـى لا أفكر فى الأمر إلا وارتجفت ..

لم يدفعنى شىء سوى رغبتكم الصادقة المتكررة كى أجلس وأحكى قصة مزقت أعصابى لمدة أشـهر ، وألقت بظل من رعب لا يوصف سيظل برغم مرور أعوام على تحررى يجعل ليالى وأيامى مرعبة ، ويجعل وحدتى رهيبة .

دعونـى أحكـى لكم شيئاً عن البـارون الجذاب الغريـب (فوردنبورج) الذى نحن مدينون لخبرته والذى استطاع أن يجد قبر (ميركالا) ..

كان يعيش فى (جراتس) على دخل ضئيل هو كل ما بقى له من أملاك أسرته الثرية ، وقد كرس نفسه للتحقيق فـى موضـوع مص الدماء الموثق ..

كانت تحت يديه كل المراجع المهمة في الموضوع مثل (ماجيا بوستيوما) .. (فليجون دى ميرابليبوس) .. إلخ ..

لا أذكر إلا مجموعة محدودة من العناوين التى أقرضها لأبى .. وقد درس كل الحالات التى تم فيها بالفعل تنفيذ الإعدام بحق مصاص دماء ، هكذا توصل إلى قواعد تحكم أحيانًا حالات مصاصى الدماء هذه .

مثلاً أذكر بالمناسبة أن اللــون الشاحب الميت الذى ينسبونه لهذه الشياطين هو خيال مسرحى .. إنهم يبدون فى القبر وفى المجتمعات كأنهم أصحاء ..

حينما ترى توابيتهم فى الضوء تجد كل العلامات المماثلة لتلك التى وجدناها فى حالة الكونتيسة (كارنشتاين) ..

أما عن كيفية مغادرة القبور والعودة لها دون أن يظهر خلل فى التربة أو غطاء التابوت فأمر لا يمكن تفسيره ..

إن طبيعة مصاص الدماء الثنائية يحافظ عليها بقاؤه فى القبر طيلة النهار .. بينما الجوع المريع للدماء هو الشىء الذى يجعله يصحو من نومه ..

أحيانًا تستبد بمصاص الدماء شهوة قوية كشهوة الحب .. وهذه الشهوة تتعلق بأناس معينين لذا فى بحثه عنهم يظهر صبرًا لا ينفد وتكتيكًا متقنًا .. وهو لا يتوقف أبدًا إلا إذا حصل على غرضه .. وإلا إذا امتص الحياة من ضحيته المشتهاة ..

لكنه لهذا الغرض وعلى طريقة الذواقة يطيل عذاب ضحيته عمدًا ويؤجل متعة القتل .. ويزداد لذة كلما اقترب من هدفه ..

لقد كنت أنا حالة خاصة جدًا ..

كانت (ميركالا) مرتبطة بأن تتخذ اسمًا إن لم يكن اسمها الحقيقى فعلى الأقل يتكون من ذات الحروف بلا زيادة أو نقصان ..

اسم (كارميللا) حقق هذا وكذا اسم (ميلاركا) ..

حكى أبى للبارون (فوردنبورج) الذى أقام معنا أسبوعين أو ثلاثة بعد قتل (كارميللا) قصة السيد المورافى

ومصاص الدماء فى كنيسة (كارنشتاين) ، ثم سأل البارون عن الطريقة التى وجد بها قبر (ميركالا) المختفى منذ قرن ..

اتخذت ملامح البارون العجيبة شكل ابتسامة غامضة ونظر لأسفل ، وراح يعبث فى جراب عويناته ، وقال :

ـ « لدى مجلات وكتب عديدة كتبها هذا الرجل المرموق .. وأكثرها غرابة يحكى فيه عن تلك الزيارة التى قام بها إلى (كارنشتاين) .. إن التقاليد تتبدل مع الوقت كما تعرف ..

« قيل إنه من نبلاء مورفيا لأنه عاش فى تلك البقعة ولأنه نبيل الأصل .. لكنه فى الحقيقة كان من سكان (ستيريا) الأصليين .. فى شبابه كان الحبيب المفضل والأكثر حرارة للكونتيسة (ميركالا) الحسناء .. وقد سبب له موتها حزنًا لا يوصف ..

« من عادة مصاصى الدماء أن يتكاثروا لكن طبقًا لقانون شيطانى صارم .. تصور منطقة خالية منهم . فكيف يبدأ الأمر وكيف يتضاعف ؟

«سوف أخبرك .. شخص ما شرير أو مذنب يقتل نفسه .. المنتحر فى ظروف معينة يتحول إلى مصاص دماء .. يزور هذا الكيان الناس أثناء نومهم فيموتون ويتحولون بشكل محتوم إلى مصاصى دماء فى القبر ..

« هذا ما حدث مع ميركالا التى استحوذ عليها أحد تلك الشياطين .. إن سلفى (فوردنبورج) الذى ما زلت أحمل لقبه قد اكتشف هذا واكتشف أكثر منه خلال بحثه المضنى ..

« من ضمن ما استنتجه أن تهمة مص الدماء سوف تتجه عاجلاً أو آجلاً نحو الكونتيسة الميتة التى كان يهيم بها حبًا فى حياتها ..

« أصابه الهلع من أن تنتهك حرمة رفاتها بفضيحة تنفيذ حكم الإعدام بعد الموت .. لم يتحمل هذه الفكرة سواء كانت الكونتيسة بريئة أم لا ..

« ترك ورقة غريبة يقول فيها إن مصاص الدم إذ يتخلى عن طبيعته الثنائية ، يقذف به إلى حياة بعيدة أكثر شناعة .. وقد اختار أن ينقذ حبيبته (ميركالا) من هذا ..

« قام برحلة هنا وتظاهر بأنه تخلص من بقاياها وأغلق قبرها .. لكن حينما تقدم به العمر استرجع مشاهد حياته فبدأ يدرك ما اقترفه .. وبدأ الرعب يستحوذ عليه ..

« وضع العلامات التى ساعدتنى على بلوغ ذات البقعة .. واعترف بالخديعة التى مارسها .. ولو كان ينوى القيام بشىء أبعد من هذا فقد حرمه الموت منه »

تكلمنا فى أمور كثيرة .. ومن ضمن ما قاله البارون :

ـ « من علامات مصاص الدماء قوة يده .. يد ميركالا الرقيقة قد أطبقت كمصيدة من الصلب على ساعد الجنرال حينما أراد أن يضربها بالفأس .. بالإضافة لهذا تترك هذه اليد تنميلاً فى الطرف الذى تمسك به يصعب أن يشفى منه .. »

* * *

فى الربيع التالى أخذنى أبى فى رحلة إلى إيطاليا ..

ظللنا بعيدين عن الوطن نحو العـام . لقد استغرقنا وقتًا طويلاً حتى توارت ذكريات هذه الأحداث .. لكن (كـارميللا) ما زالت تجد طريقها إلى ذاكرتى بأشكال غامضة متنوعة ..

أحيانًا هى تلك الفتاة اللعوب الخاملـة الجميلة ، وأحيانًا ذلك الوحش المتلوى الذى رأيته فى الكنيسـة المهجورة .. وأحيانًا تولد من حلم يداعبنى أتخيلّ فيه أننى أسمع صوت خطوات (كارميللا) الرقيقة على باب غرفة المعيشة .

تمـت

شريدان لو فانو

١٨٧٢

روايات عالمية للجيب

مكتبة متكاملة
لأشهر الروايات العالمية

60

كارميللا

- (كارميللا) !.. عندما يمتزج جو القلاع المهجورة والخرائب والمقابر التى ينسج حول شواهدها الضباب ، مع المشاعر المضطربة الغامضة لفتاتين مراهقتين .
- (كارميللا) !.. القصة التى لا يمكن الكلام عن الرعب القوطى من دون قراءتها ، ولا يمكن الكلام عن مصاصى الدماء من دون ذكرها ..
- القصة التى ألهمت (برام ستوكر) برائعته (دراكيولا) ، وعاشت فى كواليس العالم الغربى أكثر من قرن كامل ..

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية

الثمن فى مصر ٣٠٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

